الإسلام والقومية العلمانية

تأليف

عبد السلام ياسين

الإسلام
والقومية العلمانية



1915هـ - 1995 م

* الكتاب : الإسلام والقومية العلمانية

* الكاتب : عبد السلام ياسين

* الطبعة : الثانية 1995 .

* الناشر : دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية

* التوزيع : دار البشير - طنطا - أمام كلية التربية النوعية . ت . 404

* التجهيز الفنى : شركة الندى للتجهيزات الفنية . المحلة الكبرى . ص . ب .

* الإيداع القانونى : 11569 / 94

* الترقيم الدولى : I . S . B . N 977 - 5065 - 97 - 6



دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية

طنطا : 33 ش الشهيد عادل الزواوى أمام كلية التربية النوعية

ت : 322404 فاكس : 331800

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا الكتاب يطمح إلى عرض مسألة لا يمكن للفكر الإسلامى أن يتجاوزها : هى مسألة القومية وعلاقتها بالعلمانية .

إن المثقفين المسلمين ، من بقى منهم على موروثه الفطرى الإسلامى ومن تنكر لدينه، ينشغلون انشغالا كثيرا بالبحوث فى التراث والأصالة والأمجاد القومية ، ينسجون من كل هذه المفاهيم طيلسانا يتقنعون به ليزدانُ فى أعينهم الواقع الكئيب لمجتمعاتهم . فى هذا الكتاب نصطنع اللغة التى يألفها المثقفون لنحاورهم محاولين إسماع كلمة الإسلام .

إن الله عز وجل حين خلق الإنسان وذرأه لم ينبته فى أرض عراء ، وإنما أنشأه فى حضن قوم رَعَوْا نشأته . فمن الفطرة التى يتخذها الإسلام أساساً عليهِ يكملُ البناء العاطفى الفكرى السلوكى للمسلم : أسبابُ الصلة بين الإنسان وقومه . حيث يأمر دينُ الله القويم بحسن صحبة الوالدين وذوى القربى ولا ينكر إلا الحمية الجاهلية وهى العصبية القومية .

فى هذا الكتاب نعرض إن شاء الله لشىء من تاريخ الإيديولوجية القومية التى نبعت فى أرض غير أرضنا فاستوردها المثقفون المغربون من ذرارينا ليركبوا متنها فى كراتهم التى تحمل شعارات الإلحاد المفلسف تارة والردة والزندقة مرة والإلحاد العلمى أحيانا والأصالة التراثية أحيانا أخرى .

ومن خلال العرض التاريخى نقول رأينا الإسلامى .

وعلى الله قصد السبيل .

عبد السلام ياسين

سلا 15 ربيع II 1409

الفصل الأول

اللسان العربى

الولاء للغة

إن ألفاظ كل لغة تحمل المعانى الدارجة عند أهل كل لغة كما تحمل اللغة بمجموعها ، نحوها وتركيبها وبلاغتها ، شعرها ونثرها وأمثالها ، تجربة الشعب الناطق بها حساسيته وفكره وأسلوبه فى الحياة ونظرته للإنسان ، ومكانه فى الكون ، ومصيره وقيمه . لكنها تمثل فى نفس الوقت رباطاً أساسيا يلم المجتمع ، رباطا يقرب بين الناس وإن اختلف العرق واختلف الدين .

فإذا كان الرباط الدينى ضعيفا بانسلاخ الناس عن الدين ، واجتمع رباطا العرق واللغة فقد يستطيعان حرب الدين ويكونان خطرا عليه . وهذا بالضبط ما يحدث فى بلاد العروبة ، إذ نرى زعماءها ، وفى مقدمتهم النصارى العرب الذين يريدونها قومية ناطقة بلغة الضاد لا بلغة القرآن ، ينشدون أمجاد اللغة العربية ، ويتيهون هياما بها ويرفعونها مكانا ساميا .

إنها نوع وثنية ، حيث تستحيل اللغة هى الروح ، هى الأصل والفصل ، هى الحاضر والمستقبل ، هى التاريخ والحقيقة ، هى الكل .

ولاء العرب القوميين للغة التى نزل بها القرآن كولائنا للقرآن . نحب هذه اللغة ونعتبرها كما يعتبرون أجمل اللغات وأشرفها . وإذن فها قد وجدنا جسرا متينا للحوار والتقارب والتفاهم ما دمنا نعشق نفس الملاحة .

هكذا يخيل لمن يكتفى بملاحظة الظاهرة دون الكشف عن الأسباب أو لمن يسعى أن يمد الجسور ويبسط يد التفاهم بأى ثمن . عندما نغتبط بامتلاك لغة شرَّفها الله عز وجل واختارها لينزل إلينا فيها ذكره ، يعتبر العروبيون بأن العروبة قدمت للإسلام وللقرآن هذه اللغة العبقرية . عندما ننظر إلى صنع الله عز وجل حيث خلق قوما ودرجهم فى أطوار النشأة حتى تطورت لديهم لغة كان الله عز وجل فى سابق علمه هيأها لتكون وعاء لوحيه كما هيأ رجلا من بين أولئك القوم لتلقى ذلك الوحى ، يرى العروبيون أن عبقرية الأسلاف ونباهة العرق وشرف الأرومة معطيات (موضوعية) أفرزت اللغة العبقرية

وأفرزت النبى . فشتان ما بيننا . إن العروبة فى محنتها التاريخية الحاضرة ، وهى محنة المسلمين ، تتشبث باللغة العربية كما يتشبث الغريق بيد منقذه . فعليها معولهم وإليها مرجعهم من كل خيبة . بها ومنها النهضة ، وبها الحياة والبطولة ، لسر عظيم يقدرونه لها كما نؤمن نحن بالله عز وجل وتأييده . يقول زكى أرسوزى وهو من المؤسسين الأولين لحزب البعث العربى ورواده : « أمنية كل عربى هى أن يكون بطلا ، وأن يكون شاعراً ، ينشد روعة أعماله ومناقب أجداده» . إن ذلك يتم « بالعودة إلى لغتنا التى هى أبلغ مظهر لتجلى عبقرية أمتنا ، إن لغتنا لهى مستودع تراثنا ، فإذا ما وعينا ما تضمنت كلماتها من حدس ، بلغنا ما بلغ أجدادنا من عزة وسؤدد . مثَل كلمات لغتنا كمثل البذر من النبات . تضمر (يقصد تختفى) فيها المعانى ضمور الحياة فى البذر (...) فقد أصبح البعث عندنا العودة إلى الينبوع ، إلى الحدس المتضمن فى الكلمات ، كالعدالة والنظام والشعر والجمال...» (1).

تأثير الشاعرية الرومانطيقية لفلسفة فخت الألمانى واضحة . وقد كان لفلاسفة الألمان ودعوتهم إلى اللغة الألمانية الممجدة فى خطابهم وفكرهم اليد الطولى فى استنهاض الحماس الشعبى الذى مهد لتوحيد ألمانيا .



(1) نقلاً عن مجلة « الفكر العربي» العدد 22 ، سبتمبر 1982

العروبة والإسلام

فى اللغة يكمن المخزون الحدسى ، ينبوع العبقرية والحياة فى نظر العروبيين . مجرد الرجوع للغة يفتح مصبات ذلك الينبوع الثرار . وتلك أحلام تناسب تماماً الانفعالية القومية التى تتجلى فى ميدان السياسة شعاراتٍ ملتهبة ، وتعوض الهزائم العسكرية والفشل فى الحكم والوعود المخلفة فى ميادين الاقتصاد بالخطب الرنانة التى ترفع العربى القح إلى سماء السؤدد والنخوة منذ عهد أجدادنا فى عكاظ ومحافل العروبة .

امتداد بين الجاهلية والإسلام فى العاطفة والانفعال ، و« **العبقرية**» كما هو امتداد فى النسب . هكذا الأمر فى الوعى القومى . وما الإسلام إلا ظاهرة طارئة ، ثمرة من ثمرات الأمجاد العربية .

أما نحن فإن لنا تعلُّقا خاصا باللغة القرآنية ، تعلقا هو من الدين ، من صميم الدين ، لأن شكل اللغة لا يمكن فصله عن مضمون الرسالة . اللغة العربية هى الوعاء ، هى الرحم ، هى الجسم . جمالها ليس هو القيمة ، لكن القيمة ما حمله إلى عقلنا وقلبنا ذلك الجمال . بيانها ليس الغاية والمنى لكن ما أبانه من معان . قال اللّه عز وجل : ﴿ **إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** ﴾ (2) . وقال عز من قائل يخاطب رسولَه ﷺ : ﴿ **لِتكون مِن المُنذرينَ بِلسان عربيٍ مبينٍ** ﴾ (3) .

ثم إن القرآن كلام اللّه عز وجل لفظا ومعنى . ما هى الألفاظ العربية من كلام اللّه حتى تكون فى التركيب القرآنى . وعندئذ فقط يكون اللفظ بالقرآن فى الصلاة مجزئا ، وتكون الصلاة صلاة . وما من مسلم ومسلمة يحرصان على دينهما إلا يتعلمان حدا أدنى من القرآن الكريم بلفظه العربى ، فيكون ذلك وصلة لكلام اللّه عز وجل ، وشرطا فى صحة العبادات وشعورا إيمانيا لا يعوضه شىء غير التبلغ أو التضلع من الكتاب العربى المبارك .

إن من أسماء القرآن الكريم « الذكر» . هو تبصرة وذكرى فى أعماق الفطرة

(2) الزخرف : 3 .

(3) الشعراء: 195 .

الإنسانيه ، استعداد لسماع النداء الإلهى الذى يتضمنه القرآن . لذلك نشاهد تأثير القرآن الكريم متلوا مجودا أو مقروءا نصا على السامع والقارئ . فما بالك بتأثيره على العرب الأولين الذين سمعوه سمعين : سمع الفطرة وسمع الاستعداد الخاص بأذن عربية وعاطفة عربية واستئناس بالبلاغة والجرس . فالقرآن يذكر الناس بما فى أعماق الفطرة ، ويذكر العرب على مستويين اثنين .

ما من كتاب سكن فى أعماق أهل لغة ما سكن القرآن . ولا كان أبلغ تأثيرا ، ولا أشد حفزا للعزائم ولا أدعى للاحترام والتقديس . ولا أقدر على صرف وجوه الناس وقلوبهم وعقولهم وجهودهم للجهاد حتى الموت فى سبيل اللّه . ما كان ذلك ولا يكون بخاصية فى اللغة العربية ، إنما كان ويكون بما تحملته اللغة العربية من بركات الوحى الإلهى ، وما تغشاها من هيبته . إن اللّه تبارك وتعالى خَالِقُ العرب وخالق لغتهم وخالق استعداداتهم الفطرية . وقد جعل سبحانه فى المحل الذى اختاره لتجلى وحيه وظهور رسوله ورسالته ظروفا قابلة لتلقى كل ذلك ، صالحة لحمله ونصره . وكانت عروبة العرب اللغوية مكملا لاستعداداتهم الأخرى المواكبة والمساعدة . اجتمع كل ذلك ، فتبلور خيرا وقوة ، أخلاقا ورجولة ، فى القالب الإسلامى وبالروح الإسلامية .

لا ننكر أن للعرب والعروبة مزايا منيفة ، لكن تلك الاستعدادات التى أصبحت مزايا بفضل الإسلام كانت رزايا فى عروبة العرب الجاهلية . كذلك ننتظر ونرجو أن يعيد اللّه عز وجل رحمته بالعرب فتظهر فى عرب اليوم تلك الاستعدادات التى هيأ لها الأسباب فظهرت أوّل مرة لتحمل عبء الرسالة ، تلك الاستعدادات الفطرية العزيزة التى تكمن اليوم فى العرب ، ويطمرها أكثر ما يطمرها أحلام العروبة العلمانية التراثية وأوهامها.

مزية الكرم كانت فى الجاهلية ذريعة ليعدو العرب بعضهم على بعض فى الغارة ، وليقامر بعضهم بعضا فى الميسر ، وليرابئ بعضهم بعضا ليجمع ما به ينحر الجزر ويوقد نار القِرى وينال ثناء فحوّل الشعراء . علمهم الإسلام كسب الحلال وبذل الفضول ، ليكون الكرم تكملة لنسيج المجتمع الأخوى . وهكذا الشجاعة العربية التى كانت تستنفد فى الحروب والمبارزات والتناصر ، رفعها الإسلام فأصبحت بأسا على أعداء الإنسانية . وهكذا شيمة الحرية والأنفة وإباء الضيم ، رفعها الإسلام من حضيض العصبية القبلية ـ حضيض

العصبية القـومية اليوم ـ إلى ذرى العزة باللّه ورسوله . وهكذا شيم الوفـاء وسرعة البديهة وحب المدح والثناء الحسن . الإسـلام مجد العـرب وشرفهم ، فمـتى اعتزوا بغيـر الإسلام ذلوا على حد قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه .

★ ★ ★

« جزء ماهيته »

هذه عبارة مألوفة عند علماء الأصول ، معناها أن العربية جزء لا يتجزأ من الدين ، إذ هى حاملته وحاضنته . ومتى دخلت العجمة اللسان ، أو حال حائل العجمة دون فهم البيان فقد انغلق ما كان مفتوحا من أبواب الفقه وهو أعظمها ، وسارعت إلى الناس الهلكة . أخرج البخارى فى تاريخه الكبير أن الحسن البصرى رحمه اللّه قال : « **إنما أهلكتكم العجمة !** » .

وقد اتفق علماء الأصول على أن أول آلات المجتهد فهم اللغة العربية فهما واسعا . وفصل الإمام الغزالى رحمه اللّه الكلام فى الحد الأدنى من علم اللغة الضرورى للمجتهد فقال : « إنه القدر الذى يفهم به الخطاب العربى ، وعادتهم فى الاستعمال حين يميز بين صريح الكلام ، وظاهره ومجمله ، وحقيقته ومجازه ، وعامه وخاصه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومطلقه ومقيده ، ونصه وفحواه ، ولحنه ومفهومه . وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ فى اللغة درجة الاجتهاد » (4) .

يقتضى هذا أن يكون للمجتهد المتصدى لفهم كتاب اللّه وسنة رسوله التبحر التام فى نحو اللغة وصرفها وبلاغتها حتى يستشف ما يحمله ظاهر اللفظ وما يستتر وراء التراكيب من دقيق المعانى ولطيف التعابير . بذلك فقط يمكنه أن يستخرج الأحكام الشرعية . فلا تقل صحة فهم اللغة عن أهمية صحة النص .

فإن دخلت العجمة فى اللسان أو حالت عجمة القلب والعقل عن النفوذ إلى أسرار اللغة فلا أمل فى أن يبلغ النداء الإلهى محله من الوعى ، ولا أن تستشرف العقول المستعجمة المستغربة إلى مجالى العلم بكتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ . ولا يغرينا تبجح قوم بفهم العربية ، يتصدرون لبسط إيديولوجياتهم ينسبونها للإسلام ويلفقونها حول آيات من القرآن ، يموهون باطلاعهم الموسوعى وبهرجة اللفظ وزخرف القول . روى الإمام أحمد رحمه اللّه عن سهل بن سعد رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « اللهم

---

(4) نقلا عن كتاب « تاريخ المذاهب الفقهية » لأبي زهرة رحمه اللّه ، جزء 2 ، ص 110 .

تدركنى زمانا — أولا تدركوا زمانا — لا يُتبَع فيه العليم ، ولا يُستحيَى فيه من الحليم ، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب . » وليس المقصود من الحديث الشريف أعاجم اللسان من المؤمنين ، بل عجمة القلب هى انغلاقه عن الإيمان .

من أهم أسباب هذه العجمة القلبية العقلية انصراف ذرارى المسلمين من هذا النشء المستغرب عن تلقى الدين من العلماء به ، وتلقيهم عن فلاسفة الكفار . قال الإمام الشافعى رضى اللّه عنه : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس . » لا شك أن ما قصده الإمام بلسان أرسطوطاليس ليس اللغة اليونانية فى حد ذاتها ، لكن منطق الفلاسفة ومذهبهم . بيد أن مداخلة لسان أعجمى ذى مضمون كفرى لا تلبث أن تجر المثقف إلى تشرب روح تلك الثقافة الكافرة . إذ لا يمكن هنا أيضا أن نفصل بين اللغة وما تحمله وتتضمنه من رسالة . فاللغة المادية الإلحادية « جزء ماهية » الكفر . وهنا تعترضنا مشكلة عويصة لمستقبل الإسلام ، وهى كيف نتعلم لغات العلوم ونحذقها دون أن تعدينا فلسفة تلك اللغات وكفرها .

إن هذه الذريعة الخطيرة المفتوحة فى جنب الأمة تدخل إلينا منها رياح الفلسفة المادية ، ذريعة وثغرة اللغات الأعجمية ، لفى حاجة إلى علاج سريع . والمشكلة ذات حدين : الضرورة الملحة لامتلاك تلك اللغات بصفتها حاملة العلوم والتكنولوجيا ، وكيف يمكن أن تقيم حاجزا بين متعلم لغة ما وبين ما تتضمنه من عقائد وقيم ؟ العلاج تربوى شامل ، فما لم يتحصن المتعلم من داخله ، ما لم يصلب عوده على الاستقامة ، وما لم تكتمل شخصيته الإيمانية فتعريضه للاحتكاك بلغة أعجمية مخاطرة . أكتب هذا فى سنة 1985 بتاريخ النصارى ، سنة من سنوات استفحال الغزو الثقافى : فى عقر كل بيت من بيوتنا معقل للتغريب والتَّعجيم ، فيديو ، آلات التقاط لرسائل الأقمار الصناعية اللاحنة بكل لحن .

كان تحرز أسلافنا رحمهم اللّه من العجمة شديدا ، فلذلك كان علماؤهم يخالطون عرب البادية يخشون من خلطة أنباط المدن وأعاجمهم . فكان أئمة اللغة حجة يرجع إليها الفقهاء والمجتهدون . والإمام الشافعى رحمه اللّه نفسه قضى زمانا فى البادية ليتعلم اللغة لعربية البريئة من كل عجمة .

أخرج البيهقى فى الشعب عن الأصمعى قال : جاء عمرو بن عبيد إلى أبى عمرو بن العلاء يناظره في وجوب عذاب الفاسق ـ فقال له : يا أبا عمرو ! آللّه يخلف وعده؟ فقال: لن يخلف اللّه وعده . فقال عمرو : فقد قال : وذكر عمرو آية فيها وعيده . فقال أبوعبيد: من العجمة أُتيتَ ! الوعد غير الإيعاد ثم أنشد :

وإنــى إذا أوعــدتــه أو وعــدتــه * * لمخلـف إيعادى ومنـجـز موعـدى

أرأيت كيف كانت لفظتان قريبتا المبنى متناقضتا المعنى ، الوعد والوعيد ، تختلطان فى ذهن غير خبير بفصاحة العربية ، فأدى ذلك لفهم مخالف . وإن كثيرا من الخلافات المذهبية فى العقائد والفقه إنما مرجعه للتفاوت فى فهم اللغة كما قال الشافعى رحمه اللّه .

وعلى الكفاءة فى فهم اللغة تتفاوت مراتب الباحثين فى الشريعة . قال الإمام الشاطبى رحمه اللّه : « إذا فرضنا مبتدئا فى فهم العربية ، فهو مبتدئ فى فهم الشريعة ، أو متوسطا فهو متوسط فى الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية . فإذا انتهى إلى الغاية فى العربية كان كذلك فى الشريعة ، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة . فمن لم يبلغ شأوه فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنه . وكل من قَصُر فهمه لم يكن حجة ولا كان قوله قولا مقبولا . » (5) .

★ ★ ★

(5) المصدر السابق ، ص : 111 .ظ.

إعجاز القرآن

فَهْمُ الصحابة رضى الله عنهم معيار للفهم ، وحجة للفقيه . ذلك أن سليقتهم العربية، ثم التربية النبوية والتعليم ، وما وقر بتلك التربية فى القلوب من إيمان ، قربت إليهم المأخذ . ثم كان من بعدهم من علمائنا من لم يحظوا بتلك التربية ، ولا هم أهل سليقة ، فكان لابد لهم من التبحر فى اللغة ليعرفوا فضل القرآن ، وليفتح لهم باب عقلى للفهم فيه ينيره الإيمان والتقوى . قال ابن قتيبة رحمه الله فى كتاب تأويل مشكل القرآن : « إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها فى الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات . فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصا من الله لما أرهصه [أى لما سبق في علمه سبحانه] في الرسول ﷺ وأراده من إقامة الدليل على نبوته والكتاب ، فجعله علمه كما جعل علم كل نبى من المرسلين من أشبه الأمور لما فى زمانه المنبعث فيه »(6) .

أمة العرب أوتيت العارضة وحاسة البيان وذوق البلاغة ، لهذا جاءتها المعجزة من هذا القبيل . وهى معجزة خالدة ، فعسى الله أن يفتح قلوب العرب المحدثين للاستماع لرسالة الله كما فتح قلوب الأولين . أم ترى فسد ذلك الحس ، وانطفأت تلك العارضة ، واختلط ذلك الذوق الذى كان رائقا في الجدود ؟ ترى إلى أى حد تحول العجمة القلبية عن سماع القرآن السماع الكلى المطلوب ولو تهاتفت الألسن بالعروبة ؟

أذعنت العرب لبلاغة القرآن ، فما وسع عظماء قريش إلا أن يعترفوا بما لم يكن فى وسعهم إلا الاعتراف به ، إذ قال قائلهم لما سمع من النبى ﷺ : « والله ما منكم أعرف بالشعر منى ، ولا أعرف برجز الشعر وقصيده منى ! والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا ! والله إن لقوله لحلاوة ! وإن عليه لطلاوة ! وإنه لمثمر أعلاه ، معْذق أسفله ! وإنه يعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته ! » .

---

(6) نقلا عن السيوطي رحمه الله في كتابه : « صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام » ص . 23 ، دار الكتب العلمية بلا تاريخ .

لكن عنادهم وكفرهم منعاهم من بناء الإيمان على الإذعان . فقاوموا التنزيل وصاحب الرسالة بكل وسائل المقاومة . ومن أهمها منعهم العرب من الاستماع لدعوة الرسول ﷺ التى كان لبها وأسلوبها تلاوة الآيات البينات . وآذوا أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما اتخذ فى حوش بيته مجلسا يتلو فيه القرآن فيجتمع أبناء العرب ونساؤهم ليستمعوا التلاوة . وقد أخبر الله عز وجل عن ذلك حيث قال : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون .** ﴾ (7) .

إن أولئك العتاة لم يكونوا يحسنون نفاق الشعارات ، لم يكونوا يخفون نياتهم تحت عبارات « الحوار المفتوح » ، وتحت الإشادة بهذا « التراث العظيم » . كان الخطاب الإلهى ناصعا فى بيانه ولا يزال ، كان قويا فى وقعه على الفطرة ولا يزال . أولئك العتاة الأولون قاوموا وقعه المباشر بالحجز الساذج المباشر كما فعل قوم نوح من قبل حين غطوا آذانهم بالأصابع وغطوا وجوههم بالثياب فعلة مجتمع طفولى . قال نوح عليه السلام كما حكى الله عز وجل عنه : ﴿ **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾ (8) .

وفى هذا العصر عتاة تدفعهم للإنكار نفس النية ، ويدفعهم الاستكبار ، لكنهم يصمون آذانهم وآذان الناس عن السماع والاستماع بوسائل متطورة هيأها المجتمع المتحضر . إنهم يجعلون بين الناس والقرآن حجابا كثيفا اسمه « التراث » .

قرأت لمستغرب مستشرق ، واحد من الأساتذة الأكاديميين المتخصصين فى دراسة « التراث » حين سألوه : « كيف تفهم الإسلام ؟ » فأجاب متعجبا بما معناه « كيف تريد منى أن أفهم الإسلام قبل أن أقرأ كل ما كتب عن الإسلام ؟! » هذا وأمثاله ينصبون أمام أنفسهم حاجزا هائلا من إنتاج البشر يتقون به الحق ، يحتجبون وراءه لكى لا يسمعوا كلام الله من حيث هو كلام الله . إنما القرآن عندهم نص من النصوص بحاجة إلى أن « يعيدوا قراءته » مستندين إلى المناهج اللسانية البنيوية التى تؤسس لهم فهماً تشككيا عدميا يذيب النص

---

(7) فصلت : 25 .

(8) نوح : 7 .

المقروء فى غيابات اللاأدرية المطلقة . هذا هو الأسلوب العصرى من آخر طراز لذلك الموقف الكفرى الخالد ، موقف جعل الأصابع فى الآذان ، واستغشاء الثياب ، والإصرار والاستكبار . لولا أن هؤلاء أصابعهم من صنع أنفسهم لا هذه الأصابع الحسية ، وثيابهم ألوان من « المعارف » والمناهج والفلسفات ، وإصرارهم واستكبارهم معه المنصب الجامعى ، والاطلاع الموسوعى والمؤلفات والحيثية المرموقة فى الأوساط الاستشراقية .

عرب الجاهلية أذعنت منهم الفطرة القريبة لبلاغة القرآن وبقى القلب مطبوعا عليه ، أما هؤلاء فسرابيلهم « المعرفية » وأكداس المفاهيم والمعطيات من مكتسبات العصر فى مجالات « العلوم الإنسانية » غطت فيهم حتى بقايا الفطرة والعياذ بالله السميع العليم .

★ ★ ★

مناط الإعجاز

إن الله عز وجل تحدى المشركين أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن . قال تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** ﴾ (9) .

فى آية أخرى تحداهم سبحانه أن يأتوا ولو بسورة واحدة حيث قال جلت عظمته : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله** ﴾ (10) . وكانت لبعض العرب مثل مسيلمة الكذاب محاولات سخيفة ، وكان له قرآن زعم أنه حديث مثل حديث نبى قريش .

كان تحدى الخالق سبحانه لخلقه أن يأتوا بحديث مثل القرآن إبرازا للإعجاز فى وسط قوم هم أهل الكهانة والسحر والشعر والقصص . فلو كان القرآن شيئا من هذا القبيل ، ولو استطاع أن يكون هناك مثيل أكثر « مصداقية » من السخافات الصبيانية المضحكة إذن لثبت أن محمدا ﷺ شاعر كالشعراء أو كاهن كالكهان . قال الله عز وجل يخاطب نبيه : ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ (11) .

ولو كان محمد ﷺ شاعرا لانتهت رئاسته وسلطته المعنوية بانتهاء حياته : ﴿ **شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾ . وهذا بالضبط ما يزعمه ملاحدة العصر التطوريون الذين يرون فى القرآن نصا تاريخيا صاحبَ حركة ثورية ورسمَ إديولوجيتها . وذلك فى تقديرهم شأن مضى وفات ، وعلى الطليعة التقدمية أن تجهز على مخلفات تلك الحقبة التى لا تحب أن تموت بعد موت محمد ﷺ . (الصلاة والسلام منا لذكر الحبيب . وبه وجب التنبيه) .

كانت قريش ، والعرب معها ، لا تستطيع أن تضبط من أى ناحية يكتسب القرآن فعله

---

(9) هود : 13 .

(10) يونس : 38 .

(11) الطور : 27 ـ 32 .

المؤثر فيهم ، فحاروا فى تصنيفه مقارنة بإطارهم المرجعى : شاعر ؟ ساحر ؟ كاهن ؟! قال أنس أخو أبى ذر الغفارى لأخيه ، وكان أنس شاعرا : « لقيت رجلا بمكة على دينك - وكان أبو ذر متألها قبل إسلامه - يزعم أن الله أرسله : قال أبو ذر : « فما يقول الناس ؟ » قال : « يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر . » قال : « سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، وقد وضعته على أقوال الشعراء فلم يلتئم على لسان أحد أنه شعر . والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون » .

روعة الأسلوب وجزالة اللفظ لعلها راعت كثيرا منهم . لكن تلك الروعة لا تكفى لتفسير الإعجاز القرآنى . كما لا يكفى مناطا له وعلة ما فصله علماؤنا المسلمون حين ألّفوا فى الإعجاز القرآنى وفصلوا أسبابه . فهم يرجعون الإعجاز إلى أسباب أربعة :

1) جزالة اللفظ وبلاغة الأسلوب .

2) إخبار القرآن بأحوال القرون السابقة التى ما كان للعرب بها خبر .

3) إخبار القرآن بأحداث مستقبلية حدثت فعلا فى عهد النبى ﷺ وبعده .

4) إخباره بعلوم كونية سابقة لاكتشاف البشر .

وقد يشيرون إلى التشريعات المعجزة السامية بكل مقياس .

بيد أننا نرى أن محاولة استكناه أسباب الإعجاز لن تنتهى إلى شىء يمكن أن نضع عليه أيدينا وكأنْ قد فرغنا من اكتشاف حقيقة القرآن . فالقرآن كلام الله عز وجل لفظا ومعنى ورسالة ، وكل محاولة للتحليل والتركيب تؤدى إلى مزالق مثل التى سقط فيها العقلانيون المعتزلة فى مقالاتهم فى خلق القرآن . وقانا الله مواقع الزلل . القرآن كلام الله عز وجل تقمص لسانا بشريا . فإعجازه ذاتى ، إعجازه من مصدره الإلهى ، إعجازه من كون الفطرة البشرية عرفت فيه سطوة الألوهية وتعرفها ، ما عدا من طبع الله على قلوبهم فأصمهم وأعمى أبصارهم . قال الله تعالى فى حق المطبوع على قلوبهم من الكافرين :

﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . ﴾ (12) .

(12) محمد آية : 17 .

لغة القلب

هذه اللغة العربية التى حملت القرآن ، وحملت السنة ، وحملت علوم المسلمين ، وحملت حضارة عظيمة ، هل بوسعها أن تحمل لمستقبل الأمة حضارة اليوم والغد وما يكوّن هذه الحضارة من مضمون تقنى علمى مادى ؟ هل تبلغ هذه اللغة الشريفة اليوم وغدا رسالة تحرير الإنسان كما بلغت من قبل ؟

ما دام القرآن بين ظهرانينا لم يرفع فرسالة التحرير محمولة، واقتحام العقبة سماع مطلوب ، والاستجابة له منشودة . على السماع والاستجابة مدار هذا الكتاب .

إن هذه اللغة الشريفة المُشَرفة بحمل القرآن وصحبته اكتسبت روحانية وقدرة على غزو القلوب ووصف مشاعر الإيمان ونبضات الإحسان . تلك الروحانية وتلك القدرة لا نجدها ، وأنى توجد ، فى أى لغة غيرها . كل لغة غيرها منقوصة الأعضاء مبتورتها عديمة الكفاءة عن التعبير فى ميدان الرحمة . وأُذَكّر أننى أقصد بالرحمة ما من الله عز وجل إلى العبد ، أقصد تلك العلاقة الإيمانية الإحسانية . أما ميدان الحكمة فالعربية فيها ، ككل اللغات، محتاجة إلى الاقتباس ، قابلة للإثراء . أقصد بالحكمة اجتهاد العقل وإنجازه لمقتضيات الرحمة .

إن قدرتنا على اقتحام العقبة ، والعقبة تحرير وعدل وسيادة ، تتوقف على اكتساب لغتنا الشريفة المحتد سلطان الكفاءة العملية ، سلطان السيطرة على المكاسب العلمية البشرية ، سلطان الصلاحية للاستقلال بتلك العلوم والسير بها قُدُما نحو القوة الحقيق بها من يستخلفهم الله عز وجل فى الأرض .

ليس المشكل هو إسعاف المتعلم والمفكر بالعربية بالكلمات اللازمة ، لكن المشكل أن نطور أداة للتعبير عن العصر دون أن نضيع بعيدا عن لغة القرآن ، أن نسعف العقل بأداة إجرائية مع تقوية لغة القلب .

إن اللغة العربية ملك مشترك بيننا وبين القوميين العرب ، ملك بين المليار مسلم وبين

حفنة فاعلة نشيطة من المثقفين . هؤلاء يريدون أن يبدأوا بعلمنة العربية ، بجعلها لغة عامة ، وبعضهم يريدها عامية ، تخاطب كل العقول ، لا صلة لها بالدين . يريدونها لغة عقل متفتحة على العقلانية الكونية ، مندمجة فيها . لا يرون لها مستقبلا ما لم تكتسب المرونة من تطليق المفاهيم الدينية الغيبية واعتناق الواقع الإجرائى المتطور .

نحن نريد عكس كل هذا ، يريده كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر وإن كان لسانه العادى أعجميا . فمن الأداة اللغوية ، ومن المواجهة بين المطلبين المتناقضين ، ترتسم أمامنا إشكالية الصراع بين ثقافات علمانية مادية وبين رسالة الإسلام ، وتنفتح أمامنا آفاق ليس الإثراء الفعلى للغة فيها أهون من مقاومة تغريب لغتنا وعلمنتها وبترها .



الفصل الثانى

التراث والأصالة والتحديث

صدمتان قاسيتان

تاريخ المسلمين حافل ، ربما أكثر من تاريخ أية أمة، بالاصطدامات والحروب الداخلية والنكبات : ثورات داخلية ، احتلال صليبي دام مائة عام ، غزو التتار والمقاتل الهائلة ، الانحسار من الأندلس ... إلخ .

لكن صدمتين في تاريخنا كان لهما ولا يزال الأثر البالغ في نفوس المسلمين توارثته الأجيال ، والأثر البالغ في وجهة المسلمين . إنهما أعظم التحديات في تاريخنا .

أما الصدمة الأولى فانكسار الوحدة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وما نتج عن تلك الفتنة المؤلمة من قتال بين الصحابة ، وما تلا ذلك من تمزق الجماعة ، إذ ظهرت الخوارج وتسلسلت إلى طوائف شغلت بحروبها المسلمين قرونا ، وظهرت مطالبات آل البيت عليهم السلام وقوماتهم منذ قيام الإمام الحسين عليه السلام . ولم يكن مقتله الفاجع أقل وجوه تلك الفتنة قتامة ، فتميزت الشيعة وتسلسلت مذاهبهم ومقاومتهم . كان أهم نتيجة لهذه الفتنة تحول نظام الحكم من خلافة على منهاج النبوة إلى ملك عاض . ولم يكن تاريخنا بعدئذ إلا معجزة عظيمة من معجزات التاريخ، نقول بلسان الإيمان : حفظا إلاهياً وعناية ، إذ استمرت الأمة في الوجود ، واستمرالإسلام في انتشار ، رغم هذه الشجة المردية في الرأس : ألا وهي فساد الحكم .

لكن هذه الصدمة على فداحتها واستفحال نتائجها على العصور إلى الآن ما لبثت أن استوعبها عقل المسلمين واستساغها وعيهم ، فعايش العلماء من أهل السنة والجماعة فساد الحكام باعتبار أن النبي ﷺ أخبر بوقوع التحول من الخلافة إلى الملك العاض ، وسكتوا عن كثير مما كان ينبغي أن يقاوموه تهمما منهم وحفاظا على « بيضة الإسلام » وشوكته وقوته ووحدته أن تنكسر ، مهما كانت هذه الشوكة وهذه الوحدة . وعايش الأئمة وشيعتهم نتائج تلك الفتنة في التقية والاستخفاء أو في الانتفاضات بحق كالزيدية ، وخاض الأدعياء في الماء العكر مثل المختار الثقفي ودولة الباطل العبيدية .

تلك الفتنة كانت أم الفتن لتبكيرها وهولها . أما الصدمة الثانية التي غطت على الأولى

وأيقظت ذكرها فى نفس الوقت فهى الاستعمار الغربى ، واحتلال الكفار أراضى المسلمين ، ذلك الاحتلال الذى بدأ في الجزائر والهند منذ نحو مائة وخمسين سنة وبلغ مداه وأوج فلكه مع قيام دولة اليهود فى فلسطين .

★ ★ ★

التفوق الهائل

اكتشفت بعض بلاد المسلمين قوة الغرب وبأسه قبل عهد الاستعمار . تلقت مصر المملوكية « زيارة » نابليون التى لم تدم إلا ثلاث سنوات كما يتلقى الحلم المزعج . لكن انسحاب الغزاة السريع لم يتح الوقت والفرصة ليدرك المسلمون البَوْن المثير بين أعدائهم وبين حالتهم من الضعف العسكرى والانحلال السياسى والاجتماعى ، وخاصة العجز الفكرى والتنظيمى والعلمى. ولعل قلة وعيهم بذلك مكنهم من المقاومة بما لديهم من وسائل هزيلة حتى رحل أصحاب البأس الشديد إلى شؤونهم الأوروبية ، يعلمون أوربا الثورة البرجوازية التى صنعت القوة الهائلة التى انصبت بعدئذ على العالم بلاء كان أكثره إيلاما بلاء المسلمين .

قاوم المسلمون بعد نابليون هجمات الاستعمار بوسائلهم الذاتية الموروثة : بأسلحة فكرية إسلامية ، وبحوافز إسلامية هى بقية الروح بعد خمول القرون . قام الإمام أحمد الشهيد يحارب الإنجليز فى الهند ، وقام الأمير عبد القادر ضد فرنسا سبعة عشر عاما فى الجزائر ، وقام المهدى السودانى يقاتل أعظم امبراطورية فى ذلك التاريخ ، وقام السنوسية فى ليبيا ، ومحمد بن عبد الكريم الريفى فى المغرب . هذا إلى هبَّات كثيرة متواصلة إسلامية شعبية استمرت بوجه من الوجوه حتى التحمت بحركات التحرير الوطنى التى ما كانت لتحدث لولا استمرار الشعور الشعبى بكراهية الكفار . فكل من قاتل الاستعمار من المسلمين القتال الفعلى المسلح ما قاتلهم لمجرد أنهم غزاة ، بل قاتلهم أولا لأنهم كفار ، وجاء الاعتبار الوطنى فى المقام الثانى .

وبدأ القتال السياسى على يد المثقفين من أبناء المسلمين . والتقى فى هذا الميدان الواردون من المعاهد الدينية والواردون من المدارس المتأثرة بالغرب ، مثل مدارس « التنظيمات » العثمانية أو الغربية قلباً وقالباً مثل مدارس التنصير ومدارس الاستعمار .

وشيئا فشيئا ، وبتقابل الأفكار « المعهدية » الإسلامية والأفكار « المدرسية » ثم الجامعية، وبتأثير بعضها فى بعض وتوالد بعضها من بعض ، ومزايدة بعضها على بعض

ومحاربة بعضها لبعض ، انمحى فى وعى الكثير ممن حاربوا الاستعمار محاربة سياسية ذلك الفرق الجوهرى الأول بين الإسلام والكفر ، بين الحق المغزو والباطل الغازى . جاء جمال الدين الأفغانى رحمه الله من الهند بوعى كان قد نشأ فى الهند مشتركا بين الهندوس والمسلمين ، وعى عماده فكرة الاستعمار القومى ، لا فكرة طغيان الكفار على المسلمين . فلما تصدى مصطفى كمال لجيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى واستطاع من موقف وطنى أن يحتفظ لبلاده باستقلالها المتقلص المحلى ، شاعت فى أوساط المثقفين الفكرة القومية العلمانية وبدأ انطفاء الفكر الإصلاحى الذى قاده محمد عبده ورشيد رضا وأولئك الرجال رحمهم الله.

وقبل أن ينبعث الوعى الإسلامى والحركة الإسلامية على هامش الفكر القومى والوعى الوطنى على يد أمثال الشاب العبقرى حسن البنا والمودودى وسائر رواد الحركة الإسلامية المعاصرة ، ثم بعد هؤلاء وإلى الآن ، سادت النظرة الواقعية المقارنة بين الذات المتخلفة والغرب المتقدم ، ين قوته وضعفنا ، بين نمائه وفقرنا ، بين صناعته وحرفتنا البدائية ، بين علومه وأميتنا ، بين عقلانيته وخرافية عقلنا .

حقائق قاسية لا مناص من الاعتراف بها . وتبارى المثقفون من أبناء المسلمين منذ الحركة الإصلاحية فى تفسير الأسباب التى أدت إلى هذا التباين الهائل بيننا وبينهم . فكان الفكر الإسلامى ولا يزال يفسر التخلف والهزيمة بالابتعاد عن الإسلام ، بينما الفكر القومى والعلمانى يعْزوان ذلك إلى أسباب ليس تعلقنا بالإسلام أقلها سلبية فى نظرهم .

الإسلام سبب تخلفنا ، والقومية العلمانية سفينة النجاة ، هذا شعار فضفاض لف فى أدرانه ويلف كل الدعوات المستلبة ، دعوات المستغربين ، يؤمهم نصارى العرب .

البعد عن الإسلام سبب هواننا ، هذا شعار الإسلاميين . وقد أصبح الإسلام ، لغربة الإسلام بين أهله ، فى حاجة إلى إعادة عرض الإسلام من أسسه . لغربة الإسلام ولضرورة التجديد على كل حال .

★ ★ ★

التراث المجيد

لكن المسلمين ، خاصة العرب حتى النصارى منهم ، رجعوا بعد الانذهال الأول عن الذات ، وبعد الانسياح هياما وإعجابا بالغرب وحضارته ، إلى البحث عن الذات والأصل ، جريا مع موجة التأصيل التى عمت العالم المستعمَر بعد الحصول على الاستقلال . رجعة إلى الجذور القومية والثقافية ، وتشبث بها لتوازن تيار التحديث المهدد باقتلاع المجتمعات التابعة للحضارة السائدة .

كان أبو هريرة رضى الله عنه يعلن مرة فى الأسواق أن ميراث محمد ﷺ يوزع فى المسجد . فلما ذهب الناس للمسجد لم يجدوا إلا قراء يتلون القرآن . فقال أبو هريرة : « هذا هو ميراث محمد ﷺ » . القرآن ميراث المسلم ، وهو حقيقة إسلامه وشريعة حياته ، وروح سلوكه وسلوك الأمة فى كل الميادين . أما التراث فى عرف التراثيين والمؤصلين فهو « شىء » خارج عنا ، شىء نملكه ونعتز به ، لكنه شىء لا وظيفة له إلا ملء هذا الفراغ النفسى الذى يشعر به المثقفون عندما تعرض البضاعات الحضارية ، فيجدون أن ليس فى أيديهم ما عند الآخرين من تقدم وعلوم وصناعات وتفوق عسكرى واقتصادى وفنى . فلابد إذن من « بضاعة » حضارية نثبت بها شرفنا وتفوقنا الماضى .

وقد وجد المثقفون من أبناء المسلمين أرضية مشتركة يُجتمع فى ناديها ، ويتفاهم ولو اختلفت الأسباب والنيات ، كل من القومى والعلمانى والإسلامى . الكل يفخر بهذا التراث ويحب أن ينمى المعرفة به . وما يقدمه هذا التراث المجيد من عزاء للنفوس كان ولا يزال حاجة لتضمد الجراح التاريخية ولتخدير الحس التاريخى كلما ذكرتنا الهزائم الممضة ، و« النكبات » و« النكسات » ، بأننا فى واد سحيق .

الحكام القوميون والوارثيون يستعملون هذا المخدر بإسراف ، يقدمونه جرعات ملونة للشعوب ، مسكرة بأدوات الفن وحيله . وهاك الأفلام والمسلسلات ! يا ليت كانت حياة الصحابة مثالا يعطى للخُلق المتين ، والدين والشجاعة والفروسية التى ينبغى أن تتحلى بها الأجيال ! يا ليت كانت النظرة إلى الماضى المجيد استجماعا لقوى الحاضر لنخطو خطوات

على العقبة ! لنتحرر من الأ...ن ، لنطعم فى هذه الأيام ذات المسغبة ، لنكون أمة تقاتل . لكن التراث الشيئي هو نفسه ... ه من أدوات الاستبداد ، ومن أهمها . لأنه لا يوقظنا إلى فظاعة التفاوت فى الأرزاق ... عتننا فى زوايا التفرج والتسلية . ويتعالى الشعار المخدر : أمجاد يا عرب أمجاد ! ليتنو... سهاء الحلقة تو ترمَرَضى نحو الانحطاط فى حلقة تالية :

★ ★ ★

إطـراء الـذات

لم يكن التاريخ المجيد الذى اكتشفه المثقفون المسلمون من جديد بَلْسَماً للعزاء فقط ، بل كان مصدر افتخار وبارقة أمل . بما أن الأجداد كونوا أمة ناهضة فاتحة غالبة صانعة حضارة بعد أن لم يكونوا إلا قبائل « متخلفة » متقاتلة فى أصقاع جزيرة العرب ، فما المانع أن نعيد نحن الأبناء تلك التجربة ونستعيد تلك الأمجاد ؟

وعلى تباين وجهات النظر فى تحليل أسباب تلك « النهضة » الأولى وأسباب « الانحطاط» الحالى انبرى المثقفون المسلمون يحيون تلك الذكريات . وكان ولوع المستشرقين بتراث الشعوب وتشجيع الدول الاستعمارية لدراسته بقصد معرفة العقليات من خلال تراثها قد كدس إنتاجا جديدا فى مناهجه على ما ألفه المسلمون . ومن ضمن هذا « الإنتاج » دراسات منصفة عرضت تاريخ الحضارة الإسلامية بلا تحيز ، ويذكر اسم كوستاف لُبون الفرنسى فى مقدمة الكتاب الذين استقبلت ترجمات كتبهم بترحيب شديد فأما الإصلاحيون الإسلاميون فرحبوا بهذا التأييد غير المنتظر من جانب العدو ليركزوا على الشعار الإسلامى : « لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » . وأما القوميون العلمانيون ، ونادرا ما تفترق القومية عن العلمانية . فكان ترحيبهم لحاجة عاطفية بما أنهم من السلالة العربية المسلمة ينالهم من ذلك المجد رشاش ، ولحاجة إيديولوجية ؛ لأن الذات السياسية والكيان الحضارى الذى يدافعون عنه فى وجه الاستعمار ها قد أثبت له التاريخ وجودا وكرامة تاريخية .

وفى كلا المعسكرين كان إطراء الذات التاريخية نوعا من الانتصار على المستعمر المتفوق حاضرا تفوقا باهظا. وكان من لازم العملية أن نبحث عن مطاعن فى تاريخ الآخرين وحاضرهم . ولم يكن العلمانيون أنفسهم آخر من يعير الغرب بفقره الروحى وفساده الأخلاقى ومادية قيمه . وهنا أيضا تلقى المثقفون المسلمون الفكر الغربى المتحرر الناقد لتلك الحضارة الآئلة للسقوط فتبنوها .

وما لبث أن تميز تاريخ المسلمين الإصلاحيين فى أعينهم تميزا ما ، فبرزت الفترة

النبوية الخلافية على أنها النموذج الخالد فى كتابات السلفيين من أمثال الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب رحمهما الله . يوازى اقتراب هذا الفكر الإسلامى من الينابيع ابتعادُ العلمانيين القوميين ، كثير منهم ، عن إسلامية المسلمين ليتعلقوا فقط بالقومية والإنجازات الحضارية والامتداد غير المتميز من جاهلية ما قبل الإسلام .

ثم ازداد تعلق الإسلاميين بنموذجية العهد النبوى ، وانتقل العلم بتلك النموذجية إلى العمل على التحزب لله عز وجل والتربية والجهاد على مثالها على يد رواد الحركة الإسلامية ، منذ حسن البنا ومعاصريه . وازداد بُعد العلمانيين عن إسلامية الأمة إلا باعتبار الإسلام مفخرة من مفاخر العروبة ، مضى وفات الإسلام ، وتبْقى العروبة خالدة . وهكذا تأصلت الحركتان المعاصرتان المسيطرتان فى بلاد المسلمين : هؤلاء تأصلوا فى البعثة النبوية وفى القرآن وفى شريعة سماوية وعهد نموذجى وأولئك فى العرق ، وخاصة فى اللغة والثقافة .

كلما توغل المثقفون العلمانيون فى « تراث الآخرين » ، وتشربوا فلسفتهم ومناهجهم، وداخلوا نمط معاشهم حتى تمكنوا فى عشرتهم ، تقمصوا الخصوصية القومية لتعطيهم أصالة واسما وحيثية وجودية تاريخاً . لكن اللب غربى محض ، نفسا وعقلا وأهدافا . وكلما تمكن الإسلاميون فى التحزب لله عز وجل عملا ، وفى الإخلاص له نية ، وفى التمسك بكتابه هاديا وبسنة رسوله ﷺ منهاجا ، اكتشفوا عمليا وعاشوا قلبيا مصدر تلك الطاقة الإيمانية الأولى . اكتشفوا الذات الإسلامية .

الإسلاميون يعيشون إسلامهم ، والآخرون ينشطون فى طبع « التراث » ونشر التراث وتحليل التراث واستفهام التراث . ازداد نشاطهم فى هذه الميادين بعد أن أضاعوا الفرصة ، وفشلوا فى قيادة الأمة . وبذلك يلحق نشاطهم فى « إحياء » التراث من المكتسبات نشاط المستشرقين الذين أسدوا إليهم خدمات جلى .

★ ★ ★

التــراث الــحــي

لابد للإسلاميين أن يشغلوا ميادين البحث فى التراث اليوم للتمكن من المادة ، وفى غد الدولة الإسلامية ليقفوا هذه الثرثرة الأكاديمية المحمومة حول البحث ، وبحث البحث ، والحذلقة فى الجزئيات التافهة يحسبون ذلك هو العلم . إذا كان الغرب يفعل ذلك فله وسائله ، وهو حر فى ممارسة ترفه الفكرى . أما جهودنا فينبغى أن تنصرف أولا إلى البحث العلمى فى كليات الدين ، وإلى الاجتهاد فى وضع الإطار القانونى الإسلامى لحاضر ولغد يعجان بالغرائب ، وينبغى أن ينصرف لاكتساب العلوم التجريبية وتوطين التكنولوجيا والاستقلال بها .

وجد الآخرون منهجيات تبسيطية جاهزة ، تتلمذوا فيها للغرب الرأسمالى أو للشرق الشيوعى ، فهى عندهم مادية محضة هنا وهناك ، والسوق عامرة . أما نحن الإسلاميين فلا نزال فى الأطوار الأولى التأسيسية ، وتنقصنا الممارسة السياسية والتجربة الميدانية لكى نطرح الأسئلة الكفيلة بعرض الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى لبلاد الإسلام وللعالم ، للحاضر وللمستقبل ، على معاييرنا التى لا تنكر الماديات والجسمانية ، ولا أسبقية الماديات والجسمانية فى الوجود وفى سلم الضروريات ، لكن تبنى على الضرورة الجسمية المادية الحياة الغائية ، حياة الإيمان بالله عز وجل وباليوم الآخر . وحياة الإيمان هى سر بقاء هذه الأمة وزاد انبعاثها .

بدأ فى الساحة اتجاه جديد : القوميون العلمانيون أخذوا يغمسون أقلامهم فى محابر إسلامية الشعار ، لكن المداد هو نفس المداد . فى طليعة هؤلاء منافقون حاذقون تخرجوا ويتخرجون من مدرسة « الواقعية التراثية » ، هكذا أسميها . فظنوا بعد فشل الإيديولوجيات فى بلادنا أن المستند الشعبى الذى يفتقرون إليه فى متناول اليد ، ما بينهم وبين « التراث الحى » فى قلوب الأمة إلا أن يعرفوا كيف يتقربون إليه ويبلورونه ويقودونه حيث يوهمونه أنه مطلب الإسلام .

عَلي شَرِيَعتى إمام هذا الإتجاه ، وقد كان لفكره ومحاضراته وتأليبه الأثر البالغ فى

تقريب الشباب الإيرانى المثقف من الشعارات الإسلامية . وسبحان الله كيف تأيدت الثورة الإسلامية فى إيران بمثل هذا الإنسان ! وإن له بين ظهرانينا فى بلاد العرب لتلامذة ، وإن الاتجاه فيما يبدو ، والله أعلم ، هو تسابق كل المدارس والأحزاب الفاشلة إلى الشعارات الإسلامية . سبقت إلى ذلك فى إيران تنظيمات يسارية مثل « مجاهدى خلق » ، وتسابق الأحزاب من كل الاتجاهات إلى نشر المقالات الإسلامية فى صحفها ، بل إلى تخصيص جرائد حزبية « إسلامية » . الهدف هو المبادرة إلى كسب تعاطف الأمة ، وجنى ثمار الحركة الإسلامية .

علي شريعتى المثقف التراثى يرى أن مقاومة الدين فى المجتمعات الشرقية أتى بعكس النتائج التى ترتبت على علمنة المجتمعات الغربية . ويرى أن مقاومة الدين فى بلاد المسلمين أدت إلى تحطيم السد الذى كان يقف حائلا فى وجه النفوذ الإمبريالى ونفوذ الاستعمار الاقتصادى ونفوذ فلسفة الاستهلاك وغلبتها والانحطاط الفكرى والانحراف (1) .

من مزايا هذه المدرسة الشريعتية أنها تخاطب ، من فوق رؤوس الجماهير المسلمة موضوع الرهان التى لا تفهم لغةالمثقفين ، زبناءها بكل صراحة . إقرأ مثلا كتاب **التراث والتجديد** للدكتور حسن حنفى ، وهو حامل لواء هذه المدرسة ، تقرأ العجب العجاب : الكفر المتبرج ، والخلط الإيديولوجى ، والاطلاع الموسوعى فى خدمة كل ذلك .

يقول شريعتى : « فى القضايا العلمية والفلسفية ينبغى علينا أن نبحث عما إذا كانت القضية صحيحة أو باطلة . أما فى القضايا الاجتماعية فينبغى علينا أن نبحث عن عامل آخر نسيناه جميعا ، ومن هنا كانت آراؤنا خاطئة وخبط عشواء . فى القضايا الاجتماعية هناك أمر آخر غير الصحة والبطلان ، ينبغى أن نبعث عنه ، هو : متى نطرح القضية وأين ولماذا ؟ » (2) .

يرى الكاتب المنافق أن الأمة الإسلامية لما تنضج تاريخيا ، لما تصل إلى طور تستطيع معه تقبل « الحقائق الصادقة » القائلة : إن الدين هراء تسلت به البشرية فى طفولتها . لا حق ولا باطل ، لكن واقعية انتهازية .

---

(1) اليسار الاسلامي ، 1 ، ص : 62 ، ربيع الأول 1401 ، نشر د . حسن حنفي ، القاهرة .

(2) نفس المصدر والصفحة .

القانون التراثي الواقعي

ومن أمهات فكر شريعتي وسربه ، وهي نغمة سيرددها ببغاوات ، أن لكل مقام مقالاً ، وأن لكل طور تاريخي ولكل خصوصية ظرفية ، إيديولوجية تناسبهما . والدين والتراث أمور تشغل بال الأمة ، وتكون « المخزون النفسي » للجماهير على حد تعبير حسن حنفي . فما علينا إلا نخضع لقانون هذه الخصوصيات .

وقد صاغ على شريعتي هذا القانون الذي ينبغي أن نستمع إليه بانتباه لأنه مدخلنا في المستقبل لفهم التطورات المتسارعة منذ الآن في مواقف التراثيين على الساحتين الفكرية والسياسية . قال : « وهناك قانون فحواه : إننا في ظل ظروف اجتماعية معينة تستدعي كلاما خاصا ، وتتبنى أهدافا معينة وطرح قضايا معينة . إذا وجهنا الأذهان وشغلناها بأمور أخرى نكون قد ارتكبنا الخيانة مهما كان ما يطرح من قبيل الحقائق العلمية أو الدينية أو الفلسفية ، ولو كان بين أيدينا من الأدلة لإثبات صحتها ألف دليل . » (3) .

نقرأ معه هذا القانون الذي يؤسس مدرسة النفاق « العلمي » وأرجو أن لا يتألم أحد من نعتنا لأهل النفاق والكفر بالنعوت التي يطلقها الشرع على أهل النفاق والكفر . فنحن نصف المواقف بالموضوعية ، ونرتكب نحن أيضا الخيانة إن أطلقنا عليهم مجاملة أي نعت آخر ، خاصة وهم يشهدون على أنفسهم بالكفر والنفاق لا يستترون .

استعمل المترجم من الفارسية إلى العربية كلمة « فحوى » ولهذا دلالته ، فالفحوى عند الأصوليين الدلالة الظاهرة للكلام ، ومن ورائها « المفهوم » وهو المعنى الآخر الغائب لفظاً المفهوم معنىً ، إما موافقة أو مخالفة . كأنه يقول لزبنائه : « اقرأوا جيدا ما بين السطور» . ودلالة أخرى هي أن المترجم تراثي كالمترجم عنه ، كلاهما يتحكك بالألفاظ الفقهية . ولا حاجة لقراءة ما بين السطور ، فالقانون واضح . كأنه يقول : « مهما كانت الحقائق التي نؤمن بها ومعنا لإثباتها ألف دليل ، فحذار أن نظهرها أو نستعملها ، بل نستعمل الشعارات التي تروج سياسيا ونتبنى الأهداف الرائجة عند الشعب . إيماننا بأن

---

(3) نفس المصدر ، ص : 63 .

الدين إيديولوجية مرحلية ، وأن العقلانية اللبرالية أو الماركسية هى الحق ، وأن الاشتراكية هى العلم وهى المستقبل ، كل هذا نكتمه حتى تتمكن أقدامنا فى الساحات الشعبية . ولن يكون لنا هذا أبدا إن لم نحرك « المخزون النفسى » للجماهير برفع شعارات الإسلام » .

هذا هو الأفق الذى بقى مفتوحا أمام التراثيين : أن يوظفوا الإسلامولوجيا أداة مداهنة ليحصلوا على ثقة الجماهير المعبودة الغالية . هذا الموقف بديل إيجابى للمنادب والنواح العاجز الذى يسود أوساط المستغربين أسفا على انقطاعهم وغربتهم عن الجماهير التى ترفض كل ماعدا الإسلام . فعلي شريعتى ومدرسته طليعة متقدمة فى الميدان .

★ ★ ★

القومية والدين

استعمال الدين استعمالا إيديولوجيا خداع لم يكتشفه المقنن التراثى ، إنما قلد فيه جهابذة الاستعمار . والرجل قومى علمانى له أهداف قومية علمانية ، لم يكن بوسعه وقد مات قبل الثورة أن ينظر قانون محاربة الإسلام بالقومية كما يفعل حزب البعث العراقى منذ أربع سنوات ونصف (4) . فلجأ إلى اللعب على الحبلين ليخدم أهدافه القومية بشعارات إسلامية كما خدم الاستعمار أهدافه بإثارة الشعور العرقى طورا والشعور الدينى طورا آخر. وقد أورد التلميذ النجيب مصدر اجتهاد ه ليوثق قانونه ويعطيه المصداقية . كتب قائلا : « يقول جونيه لابون ، وهو أحد كبار مفكرى فرنسا فى شمال إفريقيا : « ينبغى أن تقسم منطقة شمال إفريقيا ...» لكن كيف ؟ يقول : « اكتشفت أن نصف سكان شمال أفريقيا من الناحية التاريخية ـ من البربر ، والنصف الآخر من أصل عربى . وليس بالأمر المحسوس أيهم من أصل عربى وأيهم من أصل بربرى . ثم قمت بأبحاثى واستنتجت أن الطائفة التى أغلبها من البربر ذات إحساسات قومية أكثر حدة . أما الطائفة العربية فإحساساتها الدينية أكثر غلبة . ومن هنا رأيت أنه ينبغى أن تطرح القضايا القومية والعلمية المعاصرة بين أبناء الطائفة الثانية حتى تزلزل قاعدتهم الدينية ، كما ينبغى أن ينتشر الدين بين أبناء الطائفة الأولى بحيث يتم انفصالهم عن أبناء الطائفة الثانية بعد أن ذابوا فيهم الآن فى وحدة إسلامية . وبأية وسيلة ؟ بوسيلة طرح قضية القومية » .

قلت : لم ينشر الاستعمار الفرنسى الدين بين البربر ، إنما قوى الشعور القومى ، ونشر الأعراف الجاهلية فيما يسمى بالقضية البربرية .

ويشرح المعلم شريعتى المذهب قائلا : « نرى إذن أننا حين نجرد القومية تماما من وضع اجتماعى خاص أو زمن تاريخى ، فإنها تكون مدرسة فكرية تقدمية كما وصفت فى الكتب ، وتكون طبيعة . لكننا فى هذه الظروف نرى أن نفس هذه المدرسة الفكرية الصحيحة الصادقة التى استند عليها كل هؤلاء العلماء الأوربيون ، وأنتجوا كل هذه

---

(4) كتبت هذا بعد بداية الحرب العراقية الإيرانية بأربع سنوات ونصف .

الآداب العظيمة على أساسها ، وعلى نمط تفكيرها ، وأن هذه المدرسة التى أزالت ظل الحكومة البابوية عن أوربا ، ومنحت أوربا الخلاص ، صارت بالنسبة لوحدة المشرق سببا فى الانقسام والفرقة والعناء » .

لا يحتاج إدراك مرمى الرجل إلى كبير عناء ، فهو لا يخفى إعجابه وإيمانه الشديدين بالفكر القومى الذى يعتبره حقيقة الحقائق . وسيظهر لنا مرماه واضحا جليا فيما يلى من كلامه . ولا تغرنا غيرته المعلنة على الامبراطورية العثمانية ، فمن وراء فحوى كلامه تقرأ التطورية الظرفية الماركسية ، كأنه يقول : ما دمنا لا نستطيع طى المراحل التاريخية ، وما دمنا لا نستطيع تجاوز خصوصيتنا ، فلنسالم الدين بل لنستعمله قوة بها نتحرر أولا .

قال بعد الذى سبق : « نفس هذه المدرسة الفكرية بمجرد أن تظهر فى أوربا فى القرن السابع عشر تصير أعظم عوامل الرقى والحضارة (يقصد دائما مدرسة القومية) وحين يطرحها مفكرنا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نرى فجأة إلى أية نتيجة يؤدى انتصارها . فإذا بقوة الإمبراطورية العثمانية التى كانت قد حاصرت النمسا وطوت كل أوربا الشرقية تحت لوائها ، وشرعت فى إلقاء أوربا الوسطى والغربية فى المانش ، نجد نفس هذه القومية ، وهى مدرسة فكرية إنسانية وتقدمية ، وأنا شخصيا أؤمن بها إيمانا راسخا ، نجدها حين طرحت فى ذلك العصر ، وفى ظل تلك الظروف ، وحين واصل مفكرونا ـ وكلهم كانوا تحت تأثير مفكرى أوربا تقدميين وقوميين ـ نفس هذه الحركة نجدها قد صارت بعدعشرين سنة ، أى أقل من ربع قرن ، سببا فى أن تتحلل تلك القوى العظيمة للإمبراطورية العثمانية ذات القوة الإسلامية الشرقية التى كانت تخنق أوربا ، فإذا بها تتحلل من الداخل ، ثم تتمزق إربًا ، وتصير كل إربة لقمة لها مذاق الملبنى فى فم الغرب . » .

هذا على الأقل يسرد التاريخ بلا تحيز ويعترف بفضل الإسلام فى انتصار الدولة العثمانية وتماسكها . ولعل عجمته ، وهو الإيرانى ، جنبته التعصب للقوميين العرب ضد الشطر المهم من تراث الإسلام ، تعصب قوامه لديهم الوقوف مع العروبة وإسلامها لاغير .

وهو أوسع منهم تراثية إذ يعتبر من أمجاده كل أمجاد المسلمين عرباً وعجماً . ترى أذلك فحسب لأنه عجمى ؟ اسمعه ينتقد المغربين ويشير إلى محدودية الفكر المستورد وعدم صلاحيته لبلادنا ، وتساءل معى عن كنه التمزق الذى يحس به ، وهو المؤمن الراسخ الإيمان بالقومية ومدرستها ، أمام فشل القومية فى البلاد الإسلامية .

قال : « ما أريد أن أخلص إليه هو : نحن المفكرين الذين نفكر مثل مفكرى أوربا تماما ، ونتسم بنفس سماتهم نختلف عنهم . فهم قد دققوا أخذ حقائق عصرهم وتاريخهم ومجتمعهم واحتياجاته ، واتسموا على هذا الأساس وتحركوا وعملوا على هذا الأساس .

« أما نحن فدون سند من العصر ، ودون سند من مجتمعاتنا ، ودون سند من ثقافتنا ، ودون معرفة بالظروف الاجتماعية والعصر التاريخي ، وأوضاع شعوبنا وأحوالهم ، أخذنا خصيصة واحدة من خصائصهم ، واحدة فحسب ، وعملنا بها ، فأدت إلى نتيجة عكسية فى كل مكان . وذلك لأن القضايا الاجتماعية والقضايا العينية محلية ليست كلية ».(5) .

هذا هو طرح الإشكالية العويصة التى تعرضت أمام المثقفين المسلمين الإصلاحيين ، وأمام القوميين ومنهم مسلمون ، وأمام العلمانيين وهو قلما يعلنون إلحادهم إن كانوا ملحدين ، إلا أن يكونوا دجاجلة مكشوفين مثل مؤلف كتاب « التراث والتجديد » . إشكالية عويصة هى إشكالية التراث والأصالة والتحديث ، عرضت الأفكار ، ووجهت الجهود ، وغذت الخصومات البزنطية بين المثقفين ولا تزال تغذى .

أما هذا فقد انتهى إلى الاعتراف المبرهن عليه تاريخيا بفشل القومية ، لا ينكر ذلك الفشل الإيديولوجى والعسكرى إلا مكابر . لا يكابر هو ، لكنه لا يهتدى إلى علاج غير قانون الواقعية التراثية . وفحواها ومفهومها أن لكل مقام مقالا ، ولكل طور تاريخى إيديولوجية تناسبه ، وأن كل كلام لا يصح إلا فى « جغرافية كلامية » حسب عبارته . شريعتى لا ينطلق من أن هناك حقاً وباطلاً كما صرح بذلك ، بل هى ظروف إجتماعية ، ومراحل تاريخية ، وخصوصيات قومية لابد أن نصانعها ونماشيها إلى أن تتاح الفرصة لتطبيق الحقائق العلمية التى نؤمن بها إيمانا راسخا .

---

(5) المصدر السابق ، ص . 63 — 64 .

الفصل الثالث

جـــذور العـــلمانيــة

الفصام النكد

هكذا يعبر سيد قطب رحمه الله عن انفصال الدولة عن الدين فى تاريخ المجتمع النصرانى ، هذا الفصام الذى تبناه بعض مثقفى ذرارى المسلمين تبنيا تجاه الإسلام .

فصم الشىء بمعنى قطعه بدون إبانة ، أى بدون انفصال تام . وقصمه بالقاف إذا قطعه وأبان بعضه عن بعض . وقد وردت كلمة « نكد » فى كتاب الله العزيز فى قوله تعالى : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾ (1) . قال الراغب الأصفهانى رحمه الله : « النكد كل شىء خرج إلى طالبه بتعسر . يقال رجل نكِد ونكَد (بفتح الكاف وكسرها) وناقة نكداء طفيفة الدر صعبة الحليب » .

هذا نبت نكد أعسر ظهر بيننا ساقه وزهره وثمره ، بعد أن أودعت بذوره وسقيت جذوره فى عقول أبنائنا ونفوسهم بفلاحة الغزو الثقافى وسقى التعليم المنفصم . وترى أن أعداء الإسلام من بنى جلدتنا لا يعترفون جهارا بالانقطاع والانقسام إلا فى النادر . فهم يتمسحون بالإسلام . بأسلوب أو بآخر . فكلمة فصام أليفة ، والنبت النكد فينا يتوالد ، لا هو منا فنأنس إليه ، ولا هو يعلن هويته الإلحادية مخافة البينونة عن الجماهير المعبودة . وحول هذه النقطة تدور جهود التلفيق الإيديولوجى وتدور الإشكالية العسيرة النكداء ، إشكالية الأصالة التى يريدونها قومية ، وتراثية وكل ما تشاء إلا أن تكون إسلامية حقا وصدقا ، ويتوقون إلى الحداثة فلا يرون لها سبيلا إلا العقلانية الملحدة منهجا والثورة على الدين لاجتثاثه من أصله طريقا . وقد بدأت هذه الناقة القليلة الخير تدر ، بل تفرز إديولوجية تداهن الدين وتراوغه على رقعة « جغرافية الكلام » كما رأينا آنفا .

لابد لنا من إطْلالة على تاريخ « الانفصام النكد» لنعرف الآليات الفكرية فى سلاح الإلحاد ، كيف نشأت وكيف تركبت وكيف حاربت النصرانية وحاربها . وبذلك نعرف كيف تشتغل تلك الآليات فى خلايا نبتنا الأعسر .

---

(1) الأعراف : 57 .

نشـأت تلك الحرب على دين النـصرانيـة لمقاومـة الكنيسـة ونظامـها و كـهنتهـا الذين استغلوا الدين المحرف لأهداف تعسفية منحرفة . هذه هى إستراتيـجية المواجـهـة بصـفة عامـة . ثم جاء الإلحـاد المفلسف لينازع فى أصل الدين ويـحارب « أفيـون الشعـوب » من منطلق طبقى جدلى . نرجع إلى هذا إن شاء الله بعد أن نستعرض شيئا من التاريخ .

★ ★ ★

الفاسقون

إن الكلمة الحق فى النصرانية والنصارى هى ما جاء عن الله عز وجل . قال عز من قائل : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوءة والكتاب . فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل . وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون** ﴾ (٢) .

كانت بعثة سيدنا عيسى عليه السلام حلقة فى سلسلة الوحى ، وكانت رسالته تذكيرا لما تركه ونسيه الفاسقون من الأمة المُوسوية من دين الله تعالى . ومن كل أمة كان مهتدون ، وكان كثير من الفاسقين . وتكرر الآيات الكريمة ذكر الفسق وذكر الكثرة . وإخبار الله عز وجل عن كثرة الفاسقين من أتباع سيدنا عيسى عليه السلام تشمل تاريخ النصرانية بطولة ، لا يقتصر الإخبار الإلهى على فترة ما قبل البعثة المحمدية . هذا الفسق الكثير هو كان سبب ثورة الفطرة الإنسانية على الكنيسة ، وهو بالتالى كان سبب مولد الدعوة الإلحادية العلمانية التى تطورت فى تلك البيئة ، واستوردتها إلى أرضنا رياح الجاهلية التى لا تزال تعصف . فكيف كان ذلك ؟ .

إن الله عز وجل شهد بما آتاه من رأفة ورحمة لأتباع كلمته ورسوله عيسى عليه السلام ، وبين تفريطهم فى الرهبانية التى قصدوا بها خيرا . كانت الدعوة العيساوية تجديدا لدين الله اصطدم « بالكنيسة اليهودية » التى عمرها الأحبار الفاسقون كفرا وتحريفا وظلما وقسوة . وكانت الأمة الإسرائيلية تحت وطأة الاستعمار الرومانى يومئذ . فظهرت الرأفة والرحمة تكذيبا لقسوة الأحبار الأنجاس ، وكان الانزواء عن المجتمع الوثنى الرومانى وعن ثقافته السائدة وما استلزمه الانكفاء على الذات من تراحم أخوى . وظهرت المقاومة السلبية فى المجتمعات النصرانية قبل رفع عيسى عليه السلام وبعد رفعه ، فكان القمع

---

(٢) الحديد : ٢٦، ٢٧ .

الوحشى من جانب السلطات الرومانية شاهدا على أن الأمة المؤمنة يومذاك كانت خلية تمر على السلطة فى جسم الإمبراطورية .

لا ندرى متى ظهر شعار « اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فهو شعار تصالح مع الدولة ، وإن كان النصارى ينسونه للمسيح عليه السلام ، دامتْ المجازر فى صفوف المؤمنين برسالة السيد المسيح عليه السلام ، رسالة الإسلام ، ثلاثمائة سنة . مجازر فظيعة تدل على مدى حنق قيصر وغضبه أن يظهر فى الأرض سلطان غير سلطانه . وقد وصف الله عز وجل لنا مقتلة فظيعة من تلك المجازر فى سورة البروج حين رمى المؤمنون فى لهب الأخدود . وقول الله عز وجل يبين سبب ذلك الاضطهاد : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السماوات والأرض** ﴾ (3) . كان النصارى الأولون إذن شجى فى حلق الدولة القيصرية، وكانت دينونتهم لله العزيز الحميد تثير حفيظة الدولة ونقمتها .

أثناء هذه القرون الثلاثة عاش النصارى فى السرية والتخفى ، وعاشوا تحت السياط .

كل من عرف التحزب لله عز وجل ضد الدولة ، وعرف ظروف الإضطهاد ولو فى حدود لا تبلغ معشار التحريق فى الأخاديد وعرض الأجسام العارية للسباع فى مسارح روما ليتفرج الرعاع يتصور فرص التحريف والانحراف ، ويتصور الأقلية المؤمنة المغلوبة وهى تعانى ذلك الاضطهاد الطويل . مجتمع مؤمن اكتنفه الإرهاب ، وسلكه فى أغلال الاستعباد منذ ميلاده جهاز وحشى . لا جَرَم أن يتعرض الدين السرى المستضعف لكل أنواع التزييف . لا جرم أن يَفسق عن الدين ، قبل صلحه مع الدولة ، طائفة تحت تأثير الجهل لقلة وسائل العلم والاتصال ، وطائفة أخرى تصيد فى الماء العكر . بدأ الفسق من ميلاد الدعوة .

وبالمقارنة ، فالإسلام عز منذ نشأته ، لم يعرف الاضطهاد إلا مدة ثلاث عشرة سنة ، وكان اضطهادا فى حدود لوجود العصبية القبلية التى حمت الرسول ﷺ وحمت كثيرا من الصحابة رضى الله عنهم . ثم إن الرسول ﷺ قاد الجهاد . وعلّم الدين وربى

---

(3) البروج : 8 ، 9 .

الأمة ، وأسس الدولة ، فما لحق بالرفيق الأعلى إلا والقرآن مكتوب محفوظ ، والولاية بين المؤمنين هى الرباط فى المجتمع ، والشريعة الإسلامية هى القانون السائد ، والدولة الإسلامية منتصرة ، والقيادة الإسلامية ممكن انبثاقها فى الأمة بالشورى ، ومنهاج النبوة واضح سلكته الخلافة الراشدة .

هذه المقارنة بين ميلاد الدعوتين الكريمتين مهم جدا . وإذا كان الله عز وجل قد تأذن بحفظ القرآن الكريم وبصيانة هذا الدين ونصره ، فإن من حفظه تعالى أن هيأ أسباب الصيانة فى فترة الميلاد حتى صلب عود الدين واكتمل الرجال الذين حملوا الدعوة بعد موت الرسول ﷺ .

فإن كان ظهر فى هذه الأمة المحمدية فاسقون ، وقد كان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإن فسقهم هذا لم يكن فِسق تحريفٍ لأصول الدين ، وكل المحاولات فى هذا الباب فشلت وما كان لها غير الفشل ، لأن أصول الدين ثابتة . وجزى الله عنا رجال الحديث والفقهاء وسائر العلماء والأئمة الذين جاهدوا فى الله حق جهاده .

ما كان من فسق فى هذه الأمة فلا ترجع أصوله لفترة الميلاد، لكن إلى فترة لا حقة . لا شك كانت دعوات ضد الحكم الخلافى الراشد كدعوة الخوارج ، ولاشك كانت دعوة التشيع ضد المُلك العاضّ الأموى فما بعد . لكن المذهب الخارجى ليس تحريفا للدين، والمذهب الشيعى إن جادل فى أصول الحكم فإنه لم يجادل ـ ما خلا الغلاة الفاسقين ـ فى أصول الدين .

نرجع إلى كل هذا إن شاء الله . ونسجل هذه النقطة المهمة فيما يرجع لاختلاف ميلاد الدعوتين لنشير إلى أن الذين يخاصمون الإسلام من منطلق خصام غيرهم للنصرانية إنما يشهد تقليدهم الأعمى بجهلهم وزيف نياتهم .

★ ★ ★

الوصال الأنكد

من المعقول أن نعتبر السبب الأول الذى أدى إلى الفصام النكد آفة أنكد من الفصام نفسه . النبتة النكدة نمت على أرضية أنكد منها وألعن .

كان الوصال بين كهنة الدين وطواغيت القيصرية المستبدين أصل البلاء . تزوج فسق الفاسقين بطغيان المستكبرين فولدا النبتة العسرة الملعونة . وحيثما تم هذا الزواج الغاشم استغل الدين وحُرف الكلم عن مواضعه ، واشتُرى بآيات الله الثمن القليل . حدث هذا فى بنى إسرائيل بعد نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق . وحدث بكيفية أجلى وأوضح فى مهاد النصرانية ، وحدث فى تاريخ المسلمين بشهادة سيد المرسلين ﷺ . شهادة حذرت من الفتنة قبل حلول أجلها . نرجع إن شاء الله لفتنة المسلمين بالوصال الأنكد فى فصل « الفتنة » قريبا .

دامت سيادة دولة اليهود بعد تأسيسها على يد سيدنا موسى عليه السلام قرابة السبعة قرون ، تميز أثناءها فى القرن العاشر قبل الميلاد خلافة نبى الله داود عليه السلام ، والملك النبى المبارك الفذ نبى الله سليمان عليه السلام . وما زالت أنبياء الله قبل الخليفتين وبعدهما تبعث لتذكر بنى إسرائيل بميثاق الله عز وجل . فكان النبى فى وقته هاديا واقفا إلى جانب الملك يسدده ويأمره وينهاه ، بل لا يكون الملك ملكا إلا برضى النبى . وقد قص الله عز وجل علينا أحسن القصص كيف طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ، وكيف جاء الوحى بتمليك طالوت ، وكيف اعترض بنو إسرائيل ، كعادتهم ، على أمر الله عز وجل ، ثم كيف تخاذلوا عن القتال فى سبيل الله مع طالوت كما أمرهم الله تعالى ، ثم كيف انسلوا لواذا إلا فئة قليلة من بينها داود الذى فاز برضى الله لما قتل جالوت فآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، والله ذو فضل على العالمين .

ليس معنا علم من الكتاب بما حدث بعد انشطار ملك بنى إسرائيل إثر وفاة سليمان عليه السلام إلى مملكة يهوذا فى الشمال ومملكة أورشليم (القدس) جنوبا . هل كان الله عز وجل يبعث نبيا واحدا أم نبيين . كان الوصال مباركا : نبى من أنبياء الله عز وجل

وملك مقيد بالدعوة . لكن الأمة اليهودية الخائنة قتلت الأنبياء بغير حق وعصت أمر الله فاستحقت اللعنة من عند الله عز وجل ، وتأذن الله تعالى بإخزائها إلى يوم القيامة ، وهو فاعل ما وعد به سبحانه .

أسَرَ بُخْتُصّر (نبو خود ونصور الثاني) ملك الآشوريين بني إسرائيل من أورشليم سنة 587 قبل الميلاد ، ثم بعد رجوعهم من الأسر ومكثهم في الأرض المقدسة 600 سنة أخرى ينجسونها طردهم الرومان . فمنذئذ تشتتوا في الأرض ليعيشوا أقليات محتقرة لسوء أفعالهم . فكانت القرون الخمسة والعشرون منذ الأسر الأول كلها دسائس وتآمرا وفسقا وتحريفا . هذه الظروف التاريخية تفسر للعقلاني ما وراء حركة التاريخ من إخزاء الله سبحانه وتعالى لطائفة حادَّث الله وقتلت أنبياءه . خمسة وعشرون قرنا من التآمر على البشرية ، ومن التحريف والفسق في أعشاش الكيد ومصارف الربا وبيع السحر والخرافة وحياة القذارة وأخلاق القردة والخنازير .

إلا أنها هنا مجرد حكاية لما وصف الله عز وجل به تلك الأمة الملعونة . ليس ما أكتبه تشفيا وانتقاما لهزائم العرب أمام الدولة الملعونة . كتاب الله حق دائم أبدي ، ولعنة الله أمة القردة والخنازير آيات تتلى وعبادة . وابحث في ثقافات الأمم هل تجد تعاليم أشأم وألأم من تعاليم « فقهاء » اليهود في التلمود (*) .

أما الدعوة النصرانية فإنها عاشت ثلاثمائة سنة قبل أن تلتقي بالقيصرية . ذلك اللقاء الذي كانت فيه المهادنة والتفاهم وتبادل المصلحة بين كنيسة مؤسسية وبين قيصرية حاكمة. وصال لا تزال آثاره بادية اليوم على شكل امتيازات الفاتكان ودبلوماسيته وتعاليمه فيما يخص السياسة العالمية ، زيارات الباب لأتباع الكنيسة زيارات تكلؤها الدولة وترعاها أنى حل .

كانت الدعوة والدولة في بني إسرائيل كتلة واحدة في مواجهة دائمة مع شعب رافض لدين الله . في تاريخ النصارى كانت الدعوة يتيمة على مدى ثلاثة قرون ، فلما تنصر قيصر الروم قسطنطين سنة 306 للميلاد ضم الكنيسة المضطهدة إلى أحضان

(*) اقرأ كتابنا « سنة الله » .

الدولة ، واصطنع الأساقفة ، وقربهم ليكونوا سندا للحكم . ومن ذلك العهد بدأ الوصال الأنكد الذى أدتنا إلى دراسته تأملاتنا فى الفصام النكد . ومن ذلك الوصال تلقحت أزهار الفسق لتنعقد ثماراً إلحادية نعانى مرارتها فى دار الإسلام على شكل علمانية هى اليوم وغدا خصم الإسلام الأول . لنا مع القومية من حيث كونها قومية لقاء ، ولنا مع التراثيين إن لم يكونوا من مدرسة النفاق لقاء . أما إذا جاءت القومية والتراثية تسران كفرا فلا لقاء .

من أجل هذا نطيل النظر فى منابع العلمانية وتاريخها ، عسى ينصف العقلانيون من أنفسهم فيعالجوا معنا فى حوار هادئ هذه « العقدة » العلمانية التى غص بها مثقفو الغرب وفلاسفتهم فجاء تراجمة الفكر فحولوها إلى هذه الديار ، فألبسوا الإسلام لباس الكنيسة ، وتخيلوا للإسلام كهنوتا وتحكما فى الدين لا وجود لهما . نعم كان لعلماء القصور الأثر الردىء فى تاريخنا ولا يزال لهم . وكان لسكوت علمائنا عن السلطان نتائجه السلبية . كل هذا نرجع إليه إن شاء الله . لكن شتان ما بين التاريخين والوصالين .

* * *

من هم النصارى ؟

مرت النصرانية بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام من أيدى دعاة إغريقيين ، فامتزجت فيهم بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، كما تلبست بالجمالية الوثنية اليونانية . حتى إذا دخلت النصرانية فى طور سيادتها بين أحضان القيصرية الرومانية تبلور ذانك الاتجاهان فأعطيا للنصرانية البابوية روحها وجسمها : تأليه المسيح عليه السلام وعبادة التصاوير .

فى القرآن الكريم نجد أن الله عز وجل سمى أتباع المسيح عليه السلام حواريين ومؤمنين ، لكننا نجد تسمية « النصارى » مقرونة بتأليه السيد المسيح عليه السلام . لذلك نكون جانبْنا الحق إذا سمينا النصارى مسيحيين ونسبناهم نسبة زور إلى رسول معظم من رسل الله . النصرانية كفر ، بهذا شهد القرآن . والذين قالوا « إنا نصارى » هم أقرب إلينا مودة . فمعنا من آيات الله عز وجل ما يبرر حوارنا مع النصارى تحت ظل الأمل الوارد فى قوله تعالى بعد ذكر المودة القريبة : ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ (4) أمل وشرط . أمل أن يلحق نصارى اليوم والغد بالقسيسين والرهبان الذين وردوا على رسول الله ﷺ فسمعوا ما أنزل عليه فآمنوا فكانوا مع الشاهدين .

إن حرصنا على الحوار مع النصارى قد يكون داعيه السياسى معقولا ، لكن داعيه الإسلامى هو الأصل . وذلك أن نبلغهم الدعوة رجاء أن تكون آثار الرهبانية والرأفة حافزا للصادقين منهم على الإسلام . إن دعوة النصارى « المبشرين » وأجهزتهم وأموالهم ومؤسساتهم فى عقر دار الإسلام تحديات مؤلمة . وجودها وأساليبها واستغلالها لفقر أمتنا وتفريط الحكام علي رقابنا . تلك التحديات تنادى على تعبئة إسلامية تنازلهم فى الميدان . لكن أصل الإسلام أن يبلغ ، أن يهجم ، أن ينطلق من إيجابيته الجهادية . ومسؤوليتنا فى جهاد التبليغ تقتضى أن نعمد إلى أصل البلاء كله ، بلاء الإلحاد والعلمانية ، فنحاربه كما يحارب رجال الإطفاء النار بضرب جذور الحريق .

---

(4) المائدة : 58 .

إن مسـؤوليتنا فى تبليـغ الدعوة للنصارى ينـطق بها الحديث الشـريف الذى رواه ابن منده عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : قال رسـول الله ﷺ : « والذى نفسـى بيده ، لا يسـمع بى رجل من هذه الأمـة ولا يهودى ولا نصـرانى ثم لا يؤمـن بى إلا كـان من أهـل النار » .

أسَمع الناس ، نصارى وغيـر نصارى ، بدعوة النبى ﷺ ؟ إنهم اليوم لا يسـمعون عن الإسـلام إلا شتم أعـداء الإسـلام للإسلام . مـا بلغـهم الخبـر الحق ، مـا بلَّغناه نحن . وهم بـاطلهم يجوبـون أقطار الأرض ، يبشـرون بألوهيـة البشـر ، ويعلمـون الناس فى مجـاهل إفريقيـا وفى عقر دارنا فى أندونسيا وغـيرها عبادة الأصنام ، ويطببـون المريض ، ويطعمون الجائع ، ويؤسسون الجـامعات : دولة عظيمة فى الأرض هى دولة التبـشير النصرانى . وإن نزال العلمانيـة والإلحاد و« التبشـير » معركـة واحدة ، معركـة شمولية . وبدءُ المعـركة أن نعرف أصول البلاء وقواعده ، وروافده . وإلى هذا نرجع بعد هذا الالتفات .

إنها تجارة فى الدين ، سننظر إن شاء الله فى الفقـرات التالية إلى مظاهرها التاريخية ، فسبق القلم هنا بالحديث عن تجارة الكنيسة التبشيرية فى أرواحنا وذممنا ومصيرنا .



البابوية والتجارة فى الدين

إن فى كتاب الله تبارك وتعالى إدانة للإتجار بالدين وشجبا له . قال عز من قائل : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتَبينُنَّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا . فبئس ما يشترون** ﴾ . وفى هذا التذكير تحذير لنا أيتها الأمة المحمدية أن ننبذ الدين كما نبذه من قبلنا من أهل الكتاب ، وأن نتجر بآيات الله .

ولئن اتجر أحبار اليهود فى آيات الله فحرفوها ومارسوا السحر ، فإن أحبار النصارى أتيح لهم أن يمارسوا التجارة فى الدين تفصيلا وجملة : إذ أن المؤسسة البابوية تعاملت مع الدولة ، تارة من موقع قوة وطورا من موقع تبعية ، كما تعامل القساوسة فَمن فوقهم من الأفراد . الكنيسة تبيع الإمبراطورية سندها فتقتضى الثمن ضياعا ومتاعا ونفوذا وتقاسما للسلطة . والقساوسة ورؤساؤهم يبيعون الأفراد « مغفرة الذنوب » و « البركة » والسمعة الاجتماعية بالأصفر الرنان .

كان الحقد التآمرى الدفين فى صدور اليهود ، وظلمة الغربة ، ويأس المنفى ، والانكماش على الذات ، واختمار الأوهام فى تلك البيئة ، وتراقص الآمال أمام الأقليات اليهودية المهجورة اجتماعيا ، دوافع لسعى اليهودى إلى الاحتيال على الدرهم والدينار لاستقطاب ثروات المجتمعات المضيفة ، ولسعى كاهنه الساحر القارئ حافظ الأسرار لتوفير النصوص والفتاوى المبيحة لسرقة « الكويم » الأجنبى غير الإسرائيلى ، المعتبر عندهم حيوانا لا حرمة له . والسحر إلى هذا كان دين « الكباليين » ، وحساب الأعداد ، والتنجيم ، وما تدره هذه السلطة من أرباح .

لكن لا نجد عند اليهود التجارة الكبرى التى أتاحتها البنية الكنسية لدين النصارى . فمنذ جلوس قسطنطين على عرش روما الوثنية لم يلبث هذا القيصر أن أعلن اعتناقه لدين النصرانية الذى كان عندئذ قد أصبح دين « جماهير » واسعة . كان هذا سنة 306 ، فما كانت سنة 325 حتى انعقد مجمع نيقيا حيث اتفق أساقفة الكنيسة على طرد أصحاب المذهب الأريانى الذين كانوا يقاومون عقيدة تأليه المسيح عليه السلام . واختار الأساقفة

الأناجيل الأربعة التى راقت اتجاههم لتكون هى النصوص الرسمية من دون الأناجيل التى ورد فيها ذكر نبى الهدى الذى بشر به المسيح عليه السلام مثل إنجيل برنبا . وفى سنة 787 انعقد المجمع الثانى فى مدينة نيقيا ليثبت مشروعية عبادة التصاوير ويطرد من كانوا يقاومون عبادتها . وهكذا استمرت مجامع الكرادلة والأساقفة تحت سلطة البابا المنتخب تمارس سلطتها فى التشريع ، وتبنى ما تراه من المعتقدات ، وتؤول ، وترسم الاتجاه الدينى والسياسى للكنيسة . لا يحد من سلطتها نصوص هى نفسها اختارتها من بين النصوص العديدة التى ما منها كلمة واحدة ثبتت عن المسيح عليه السلام بالسند الثابت المنقود نقدا علميا كما هو الشأن فى نصوص الحديث الشريف . وأقدم ما بأيديهم من هذه النصوص إنما هو ذكريات كتبت بعد رفع نبى الله عليه السلام بأكثر من سبعين سنة . وهكذا أمكنهم أن يشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله كما يشاؤون .

بدأ الفاسقون ، كما وصفهم الله عز وجل فى كتابه ، فى ممارسة التحريف والاتجار منذ عهد قسطنطين . يقول « درابو » : « دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون ، ولم يخلصوا لها يوما من الأيام . وكذلك كان قسطنطين ، فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره : 337 » (5) .

وبينما كانت طائفة من الرهبان على طول تاريخ النصرانية يمارسون تعذيب الجسم بجلد أنفسهم وبكل أنواع الإرهاق رجاء التغلب على نوازع الشهوة ، وهذه بقية من آثار الرهبانية التى ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، كان رؤساء الكنيسة يمارسون المتعة واللذة والفسق فى أخبث مظاهره .

تجد فى تاريخهم الراهب ماكاريوس الذى نام ستة أشهر فى مستنقع عفن ليقرصه الذباب السام ، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد . يوسبيوس كان يحمل قنطارين . يوحنا « عبد » ثلاث سنوات قائما على رجل واحدة لم ينم ولم يقعد طيلة السنوات

(5) كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، لأبي الحسن الندوي ، ص : 185 ، دار الأنصار القاهرة .

الثلاث . رهبان عاشوا عراة إلا من شعرهم الطويل يمشون كالأنعام على أربع ، يقتاتون بالحشائش . أبْراهام لم يمس الماء وجهه خمسين سنة . رهبان كانوا يعدون غسل الوجه حراما . ورهبان كانوا يتجولون فى البلاد يخطفون الأطفال ليربوهم تربية رهبانية .

هذه الذهنية الرهبانية غطت تلك القرون بظلام كثيف من الجهل ، فتأثرت البيئة الأروبية بها . كانت المرأة عندهم حيوانا ورجسا وشيطانا . وكانت الخرافات التى ارتبطت فى الأذهان بذكر « القرون الوسطى » هى نمط العيش وفلسفة الحياة . كان كبيرا تأثير الرهبانية الفارة من الدنيا السادرة فى معتقدات « الخطيئة الأولى » و « الخلاص » و « التكفير » عن تلك « الخطيئة » الوهمية التى تلف البشرية جمعاء وتعرضها فى زعمهم الخرافى لغضب الله وانتقامه . وعاشت عامة الشعوب النصرانية فى هذا الأفق العقدى : العقول معتمة ، والإرادات مكبلة ، والمتعة الجسمية رجس ، والبعد المادى للحياة أحبولة شيطانية .



أرض الجنة فى المزاد العلنى

فى الجانب الآخر ، بينما الرهبان فى أديرتهم يعانون الجوع الإرادى ، وقهر النفس ، انطلق القساوسة والأساقفة والبابوات ورؤساء الكنيسة إلى جانب الأباطرة والقياصرة وأمراء الإقطاع يقطفون زهرة الحياة الدنيا حيث لا تراهم أعين الشعوب المرهبنة .

يقول الراهب جروم «JARUM» : « إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين . وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما ، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال . وعدوا طورهم ، حتى كانوا يبيعون الوظائف والمناصب كالسلع . وقد تباع بالمزاد العلنى ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة ، وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ! ويرتشون ويرابون . وقد بذروا المال تبذيرا ، حتى اضطر البابا « إنوسنت » الثامن (قلت : معنى إنوسنت : البرىء!) أن يرهن تاج البابوية . ويذكر عن البابا « ليو » العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال ، وأنفق نصيبه ودخله ، وأخذ إيراد خليفته المرتقب (من بعده) سلفا وأنفقه . ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم » (6) .

قال الله عز وجل يندد بالنصارى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم** ﴾ (7) . وقد فسر النبى ﷺ الآية بأن عبادة النصارى أحبارهم ورهبانهم تعنى طاعتهم لهم فيما يشرعون من الدين . وبالفعل ، كانت للكنيسة السلطة المطلقة فى هذا المجال . وكانت الشعوب المرهبنة تعيش تحت إرهاب الواعظ المزمجر وتحت سوط « اليد الدنيوية » يد الجلاد الذى كان ينفذ أحكام المحاكم الكنسية . وما عهود « التفتيش » وما واكبها من سوم البشر طيلة قرون سوء العذاب إلا صفحة من أشد صفحات التاريخ البشرى سوادا . وما كانت مؤسسة التفتيش فى قطر من الأقطار ولا فى عهد من العهود أشد بطشا وأوسخ همجية مما كانت عليه ضد المسلمين فى الأندلس بعد سقوط غرناطة

(6) المصدر السابق ، ص : 191 .

(7) التوبة : 31 .

آخر معقل من معاقل الإسلام هناك . أعادها الله العلى القدير .

وتلك فترة لا نريد الالتفات إليها فى هذا الكتاب الذى ينظر إلى المستقبل الزاهر بإذن الله جلت عظمته وتبارك اسمه ولا إله غيره .

وأدهى من تعذيب البشر وملاحقة المستضعفين التبليد الذى واكب ذلك ، حتى تخدر حس الناس بالقيم ، وحتى أصبح الناس لا يعرفون قبيلا من دبير أمام تناقص قادتهم . الرهبان فى واد ، ورؤساء الكنيسة فى واد ،وأولئك يعترفون بسلطة هؤلاء ، وما للشعوب سوى الامتثال والسياط والجهل . قال « ليكى » يصور ما كان عليه المجتمع النصرانى من التناقص فى تلك العهود : « إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما فى أخلاق الناس واجتماعهم . وكانت الدعارة والفجور ، والإخلاد إلى الترف ، والتساقط على الشهوات ، والتملق فى مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء ، والمسابقات فى زخارف اللباس والحلىّ والزينة ، فى حدتها وشدتها ، كانت الدنيا فى الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى . وإن المدن التى كان فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور . وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس . وكان الضمير الإنسانى ربما يخاف الدين ووعيده ، ولكنه أمن واطمأن لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان . لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب ، حتى فاق هذا العصر فى ذلك عصر القياصرة » (8) .

* * *

(8) المصدر السابق ، ص : 190 . وقد استفدنا مه في هذه الفقرات .

اضطهاد رجال العلم

كانت الكنيسة فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى قد اشتد عودها وأصبحت منافسة للإمبراطورية . بل إنها أثبتت سيادتها ، حتى إن الإمبراطور هنرى الرابع اضطر أن يمثُل بين يدى البابا فى قلعة كانوسا متضرعا مستغفرا . وأصبح يضرب المثل لكل من انهزم أمام خصمه واضطر للخضوع ، فيقال : « ذهب إلى كانوسا ! » .

وكان من الممكن بعدئذ للكنيسة أن تستعمل سلطانها الواسع ونفوذها السياسى والاقتصادى والمعنوى ، ووجودها على جميع المستويات فى كل أنحاء أوربا لكى ترفع من مستوى الشعوب وتكون عامل تقدم وتحرر . ولكن لسوء حظ النصرانية ، ولسوء حظ الأجيال اللاحقة ، هيأت الكنيسة جو الظلم والاضطهاد الذى ترعرعت فيه جراثيم الأوبئة الاجتماعية وخرافية الفكر . ثم تفاقم فسادها وإفسادها رغم تقلص نفوذها فى القرون اللاحقة ، حتى لفظ مفكرو أوربا الكنيسة وكل ما تمثله ، وارتدوا إلى المادية الوثنية التى اتخذت أشكالا فلسفية وسياسية ، إلى أن قامت الثورة الفرنسية عام 1789 بكسر الغل المميت الذى كان يخنق العقل والنفس .

كانت الكنيسة تقاوم العلوم النظرية والتطبيقية التى كانت تأتى من البلاد الإسلامية ، من صقلية والأندلس . فكان الطب العلمى يحارب لترتع الشعوذة ، وبذلك عاشت أوربا قرونا طويلة عاش الناس أثناءها تحت كابوس الأوبئة والطاعون . كانت تعاويذ القس تدر عليه أرباحا ، فَلِمَ يترك الطبيب ينافسه ؟ وبث الرهبان فى كتبهم أفكارا مخطئة فى مجالات متعددة من مجالات المعرفة كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والفلك . وليتهم إذ فعلوا ذلك قالوا : « هذا ما وصل إليه علمنا » ! « لكنهم أخذوا يؤيدون هذه الخرافات بحجج « دينية » ويدعمونها بنصوص مأثورة عندهم . فكلما تفتحت عقول الباحثين الأحرار للنتائج العلمية الإسلامية ، وكلما تعلمت تلك العقول النقد المعرفى انكشف تزوير آباء الكنيسة . فلم يكن أمام هؤلاء للدفاع عن سمعتهم وسمعة دينهم الذى ورطوه فى هذه المغامرات إلا أن يكفروا كل من عارض « الجغرافية النصرانية » و « علم الفلك

النصراني » وسائر مسلماتهم . يكفرون علماءهم الأحرار ولو كانت كل البديهيات تؤيدهم .

وعندما اشتد ساعد العقل الجديد ، وانتشرت مبادئ البحث الحر ، ازدادت ضراوة الكنيسة وسلطت محاكم التفتيش على الناس تحرق وتقتل ، وكان حكم الإعدام « بدون إراقة الدم » يعني التحريق . وقد طبق مثل هذا الحكم على عالم الطبيعة برونو . واضطر غاليليو أن « يقتنع » أمام المحكمة بأن الأرض لا تدور اتقاء ذلك البطش الفاتك . وكان هذا العداء السافر للعلوم ، وهذا الاضطهاد الأسود للعلماء ، أهم الأسباب التي فجرت في الطبقات المتعلمة كراهية الكنيسة وكراهية دينها . وذلك ما أدى آخر الأمر إلى الحل المحتوم ، وهو انفصام بين العقل العلمي والخرافة ، بين البحث الحر والتقليد السخيف لما في أساطير النصوص ، بين الحياة الحرة والخضوع تحت نير الاستعباد .

★ ★ ★

الإصلاح والتجديد

في القرن السادس عشر انبعثت مقاومة للاضطهاد الكنسي والفساد الكنسي المتمثل في البابوية وبيع صكوك الغفران من داخل الكنيسة نفسها . وكان مارتن لوثر القس الألماني أهم ثائرفي حركة « البروتستانتية » ، ومعناها الاحتجاج . كان « ويكليف » قائد هذه الحركة في إنجلترا ، « وزونغلي » في سوسيرا ، « وكلفن » الفرنسي في فرنسا ثم في سويسرا حيث أسس جمهورية بروتستانتية في جنيف .

لكن هؤلاء الثوار النصارى لم يستطيعوا التخلص من الجرثومة التي نشأ منها الفساد وتوالد : ألا وهي الدين المحرف . إنما استطاعت الحركة البروتستانتية ، خصوصا في الإمارات التي تكون اليوم ألمانيا ، أن تتحالف مع أمراء الإقطاع الذين كانوا يرغبون ، لأسباب سياسية ، في التخلص من سلطان البابا . وبهذا الحلف استطاع المذهب البروتستانتي الذي يسمونه إصلاحا « reforme » أن يحرر الناس من القس وكرسي الاعتراف و « الشفاعة » و « الغفران » وسائر تلك الطقوس . واستطاع أن يصرف الناس عن وجه الكاهن إلى « الإنجيل » مباشرة .

كان لمجرد تحرر البروتستانت من أغلال الكهنوتية أثر في سلوكهم . فهم معروفون إلى الآن بصلابة وجد ، فلو كان التحرير شاملا عاما ووضع في أيدي الناس كتاب اللّه عز وجل الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم لظهرت الفطرة في صفائها .

لم يخرج لوثر عن دائرة العقيدة الموروثة وإن خرج عن دائرة السلطة البابوية . فهو وأتباعه بقوا يجولون في أجواء « الخطيئة » الآدمية ، في زعمهم الباطل ، التي يحمل كل إنسان من ميلاده وزرها ، وعليه أن ينال المغفرة والخلاص بالانطواء تحت جناح « المخلص». فالإنسان في هذه العقيدة السخيفة آثم مذنب لمجرد وجوده . ولا يخفى ما يتولد عن هذا الشعور من تثبيط للإنسان . ويبقى كلفن وأتباعه يدورون مع عجلة « القدر المكتوب » . ويا عجبا كيف صارت هذه العقيدة الجبرية حافزا للبروتستانت على التوغل في جمع المال بدل أن تدعوهم للتكاسل والتماوت !

كانت حركة « الإصلاح » هذه عبأت خير العقول الكنسية فى الثورة على البابوية ، مواكبة فـى ثورتها الحركة العامة للفكر المتحرر . لكنها لم تستطع أن تزيل الآثار العميقة لقرون الهيمنة الكنسية على المجتمع ، بل بقيت هى نفسها رهينة نفس الأفكار . ولم تلبث السلطات السياسية أن استحوذت على مكتسبات « الإ صلاح » واتخذت هذا المذهب أو ذاك سلاحا دينيا فى الصراعات والحروب . العرش الانجليزى استغل وجود تلك « الموجة » حسب التعبير الحديث ليستقل عن الكنيسة فيصبح ملك إنجلترا أو ملكتها رئيس الدولة ورئيس الكنيسة معا . كان الجو العام بعد فشل الإصلاح يتهيأ لجولة حضارية جديدة ، لجولة مادية تعتمد على العقل وإنتاجه ، وترمى كل القيم الأخرى مع مخلفات الدين الكنسى .كانت النهضة « Larenaissance» قد بدأت فى إيطاليا وريثة المعارف الإسلامية ، ومنها سرت فكرا وفنا ونمط حياة لتعم أقطار أوربا على مدى ثلاثة قرون .كانت رياح التجديد تهب فى إتجاه معاداة الكنيسة وإسقاطها . وبعد تعسف الكنيسة الطويل اضطرمت ثورة « الفلاسفة » من أمثال فولتر وروسو اللذان يعتبران الأبوين الروحيين للثورة الفرنسية التى حسمت داء الكنيسة من جذوره .



حرب بين العلم والدين

يقول أبو الحسن الندوى ، وقد أحسن أحسن الله إليه ، فى وصف هذه الهبَّة من جانب الفلاسفة : « هنالك ثار المجدون المتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حربا لرجال الدين ، وممثلى الكنيسة ، والمحافظين على القديم . ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب . وعادَوا الدين النصرانى أولا والدين المطلق ثانيا . واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين النصرانى - وبلفظ أصح ، البولسية (9) - حربا بين العلم والدين مطلقا . وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الدينى ضدان لا يجتمعان . فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى . وإذا ذكروا تلك الدماء الزكية التى أريقت فى سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم ، وتَمثَّل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ، وحياة مقطبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة ، اشمأزت قلوبهم ، وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم . » (10) .

لم يكن عند الفلاسفة طلب صادق للحق ، ولم يكن أمامهم مصدر يستقون منه علم الحق ، فنبذوا نبذ النواة الكنيسة ، ونبذوا معها مبدأ الدين نبذا مطلقا . وورث العلمانيون من ذرارى المسلمين تلك الحروب وتلك العداوة وذلك النبذ المطلق .



---

(9) نسبة إلى بولس مؤسس النصرانية الكنسية .

(10) المصدر السابق ، : 195 .

حضارة لا تعرف الله

كانت الولايات المتحدة الأمريكية آخر معقل من معاقل النصرانية . كان شعار : « اللّه ، الأسرة ، الوطن » يرسم الاتجاه التربوي ، ويلقن للطفل منذ نعومة أظفاره . وكانت الكنائس المنتمية لمئات المذاهب المختلفة تمثل ديمقراطية الدين ، لكنها في أغلبها لا تخرج عن إطار البروتستانتية أو الكاثوليكية وعن أخلاقية « المتطهرين » « المهاجرين » الأولين من انجلترا الفارين بدينهم من اضطهاد الدولة .

منذ ثلاثة أجيال بدأ الانحدار السريع ، واستحقت « حضارة الكوكا كولا » اسمها ، إذ يرمز المشروب الذي ساد العالم بسرعة إلى القيم المادية الصرفة ، إلى المتعة واللذة ،إلى الفراغ المعنوي والربح السريع الذي أحرزته الشركة التي احتكرت « أسرار » الشراب في مقدمة الشركات المتعددة الجنسية التي هي كنائس العصر ومعابده ومذهبه .

انتهت منذ أربعة أعوام ونيف رئاسة كارتر النصراني المخلص لدينه الذي كان ملجأ للضمير الأمريكي ووميضا ظنت أنه ينير لها الطريق بعد أن ادلهم أمامها المستقبل إثر هزيمة الفتنام وفضائح رئاسة نكسون . كانت التفاتة إلى الدين خاطفة ، ثم تابعت الولايات المتحدة طريقها المنحدر لما سمعت صوت رئيسها الحالي ريكن الذي بشرها باستعادة الازدهار الاقتصادي والعزة الوطنية واستراتيجية حرب النجوم . فأمريكا اليوم في مقدمة تيار الانحلال والبطش بالشعوب الضعيفة ، في مقدمة موكب الحضارة التي لا تعرف اللّه عز وجل .

الحضارة الغربية اليوم تعرت نهائيا عن كل قيمة غير القيم المادية المنفعية المحسوبة عداً ونقداً أو استثمار وانتظارا . المادية هي دين الديمقراطيات الغربية النصرانية اسما كما هي دين الاشتراكيات الشيوعية الملحدة مبدأً . دينها جميعا القوة العسكرية ، والتوازن الاستراتيجي ، والمصالح الاقتصادية ، والتسابق إلى المراكز ذات الأهمية الجغرافية السياسية . وفي داخل تلك المجتمعات يتجه الإنسان إلى التمتع الدوابي ،إلى الزنا واللواط اللذيْن أصبحا أمرا عاديا ، بل نشاطا يحميه القانون ، إلى الجريمة والمخدرات ، إلى « الفن»

وكل ما تعطيه الكلمة من صور الهروب من الواقع ، حتى إذا استنفذ الإنسان كل ما جاءته به الحضارة المادية من أمن فى المعاش ومن فرص اللذة ، غدا ينتحر بجنون ، ينتحر لينسى فراغه ، لينسى هذا النعيم الدوابى الذى تضج منه الفطرة البشرية .

أريد هنا أن أنبه نفسى وإخوانى ، ونحن فى محاولة لمعرفة الواقع العالمى معرفة مبصرة لا يكدرها التعصب ولا تلونها الرغبة الذاتية ، أن هذه الحضارة المادية الملحدة الروح والاتجاه لا تزال قائمة ، وأن الإنسان الذى صنعها لا يزال يتمتع بخصال إيجابية نحن أحوج الناس إليها، أفقر الناس منها . وهناك هذا التشبث الرائع بحقوق الإنسان ، وهناك جمعيات يتجمع فيها صفوة الضمير الإنسانى وسط تلك الحضارة التى لا ضمير لها . بدون معرفة المستثنى والمستثنى منه نكون نغر أنفسنا ونرضى الرغبة الصبيانية فى تمجيد الذات من خلال تصوير الآخرين بألوان السواد .

يبقى أنها حضارة شيطانية ، فالغرب الديمقراطى تحتضر فيه النصرانية احتضارها الطبيعى . والديمقراطيات الشعبية ، وخاصة الاتحاد السوڤياتى ، خنقت الكنيسة خنقا كما خنقت المسلمين ، وأفنتهم وأغلقت مساجدهم وصنعت لهم المفتى السوڤياتى المعمم .

وأخيرا اعترفت الدولة الروسية بحرية الأديان فى سياق « إصلاح » جربتشوف و« شفافيته » تيقُّناً أن تيار « الانفتاح » الديمقراطى سيجرف الأديان فى بلاد السوفيات كما نجرفت فى بلاد الديمقراطيات النصرانية .

★ ★ ★

جاهلية

هنا وهناك ، فى شرق الجاهلية وغربها ، عم الجهل بالله عز وجل ، واكتسح هذا الجهل كل مجالات الحياة : اكتسح النفوس والعقول والأخلاق والاجتماع والسياسة والقانون . لا يتحرك شيء ولا فكرة فى تلك المجالات إلا والمنفعة هى المحرك ، والجدوى المادية هى الهدف ، وكلمة « اقتصاد » تؤدى هذين المعنيين ، وتلخص المذهب المادى. ومن ضمن الاقتصاد ، وفى سجلاته ، حساب أسلحة التخريب ، وحساب حانات الخمر ، وحساب أوكار الزنا والقمار ، وحساب المبيعات والمشتريات : ما قتل منها الانسان ، وما أفسد صحته ، وما غيم عقله ، وما أنساه وسلاه . الإنتاج من أجل الإنتاج . الإنتاج من أجل الاستهلاك . ارتفاع الناتج القومى ، ارتفاع مستوى المعيشة .

يقول الأستاذ محمد أسد المسلم الوارد علينا من ماضيه اليهودى النمساوى ، وهو خبير من أهلها يشهد بما هنا لك : « لا ريب فى أنه لا يزال فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى ، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم . ولكن هؤلاء شواذ فقط . إن الأوربى العادى ، سواء عليه أكان ديمقراطيا أم فاشيا ، رأسماليا أم بلشفيا ، صانعا أم مفكرا ، يعرف دينا إيجابيا واحدا هو التعبد للرقى المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول المثل الدارج : « طلبقة من ظلم الطبيعة » . إن هياكل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء . وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة ، والمهندسون ، وكواكب السينما ، وقادة الصناعات ، وأبطال الطيران . وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، وذلك بتكوين جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ، ومصممة على أن يُفنى بعضها بعضا حين تتصادم مصالحها المتقابلة . أما على الجانب الثقافى ، فنتيجة ذلك تكوين نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العلمية ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادى » (11) .

---

(11) « الإسلام على مفترق الطرق » ص 47 - 48 ، الطبعه السادسة ، دار العلم للملايين .

وردت كلمة « جاهلية » فى القرآن الكريم مقترنة بالحمية والعصبية . والعصبية القومية اليوم هى الرباط الاجتماعى الذى لا يزال السمة الغالبة عمليا على تكوينات الدول المصنعة. وإن كانت شعوريا وثقافيا تزعم أنها تجاوزتْ القومية بعد استقرارها وبعد الحروب الدامية ومنها الحربان العالميتان ، التى اصطدمت فيها القوميات .

الجاهلية بعد هذا تحمل معنيين آخرين : الجهل ضد المعرفة ، فهى لا تعرف اللّه تعالى ، والجهل ضد الحلم ، وهو العنف . بهذا تكون الجاهلية مفهوما عاما لا يصف حالة الجزيرة العربية قبل الاسلام ، بل حالة كل مجتمع توفرت فية السمات الثلاث : حمية وعصبية تنافيان التحزب للّه عز وجل ، ثم الجهل باللّه عز وجل ولو كانت المعارف الكونية غزيرة ، ثم ما يترتب على تينك المقدمتين من عنف . ولا مراء فى أن المجتمعات التى ولدت فيها الحضارة المادية كردة فعل ضد الدين الكنسى ، وولدت فيها الدولة القومية كحقيقة الحقائق السياسية ، وعرفت أشنع الحروب ، وصنعت القنابل الذرية وسائر الوسائل الجهنمية، هى مجتمعات جاهلية . يرحم اللّه شهيدنا سيدا قطبا ، فقد كان الصوتَ الناصح الذى لا يعرف الهوادة حين ندد بالجاهلية وقابلها بالإسلام ، فأوضح مفهوماً كان يتردد تحت قلم أبى الأعلى المودودى رحمه اللّه .

لكن أين تمر الحدود بين الجاهلية والإسلام ؟ أين يقطع الخيط الفاصل بين الحق والباطل؟ أيمر عبر الدول ؟ أم عبر الطبقات ؟ أم عبر الأحزاب السياسية ؟ أم عبر المذاهب ؟ أم فى قلب الإنسان ؟ أم فى عقله ؟ أم فى التاريخ ؟

نرجع إن شاء اللّه لكل هذه المعانى : إنما نضع هنا صُوّة من صُوى الطريق فى انتظار العودة المنهاجية . واللّه المستعان .

إننا معاشر المسلمين فى أوائل هذا القرن الخامس عشر المبارك ، أمه مستعبدة ، أمة اختلطت فيها القيم بفعل الاستعمار والغزو الثقافى ، وتشعبت أمامها الطرق ، وتأزمت فيها السياسة ، وتأزم الاقتصاد ، وعلت فيها الآراء العلمانية القومية ، واختلفت المذاهب . وكل هذا يهون فى جنب الدعوة المعلنة أو الضمنية للعلمانية ، وبالتالى والتابع المنطقى للإلحاد . فالأسئلة المنهاجية أمام هذا الخطر ، وعلى ضوء ما آل إليه أمر النصرانية ، هى : هل نتحرر ضد الإسلام أم با لإسلام ؟ هل القومية والعلمانية خدنان لا يفترقان ؟ هل العنف ضرورة

للتحرر ؟ إذا كان فَضِد من ومع من ؟

إن للإسـلام الرسمى الموروث ، إسـلام الواجهـة ، إسـلام أجهـزة الحكم الجبـرية فى بلادنا ، ارتبـاطات بأعداء الإسلام فى الخـارج ، وارتباطات طبـقيـة فى الداخل ، وصبـغة محلية قومية ، ووظيفة تخديرية . وإن تأملا بسيطا لاستعمال « المارشال ـ الإمام » النميرى للشعارات الدينية كاف أن يقنع كل من لا يعرف من الإسلام إلا إسلام الوجوه المنافقة بأن الدين أفيـون الشعـوب . كـاف أن يقنع من يعرف تاريخ الجاهليـة المعـاصـرة ومداخلهـا ومساربها إلينا أن « الإسلام بخير » . فما الإسلام ؟ وما الجاهلية ؟ وما الطريق ؟

★ ★ ★

الأصالة الجاهلية

كان الطلاء النصراني الذى اصطبغت به أوربا قرونا طلاء سطحيا . وإن تاريخ الكنيسة الحافل بأسماء « الدكاترة الدينيين » ، والإنجازات المعمارية ، والمعابد القوطية المشيدة ، والسلطان الدينوى الفخم الذى تمتع به البابوات ما هو إلا هيكل تذكارى لواقع حقيقته رهبنة الشعوب وسيادة نظام كهنوتى رأينا بعض صفاته . كانت الجذور الوثنية راسخة فى ضمير تلك الأمم ، لم تستأصل النصرانية تلك الجذور وإنما استغلت وجودها . ولم تكن عبادة التصاوير وتأليه المخلوقات وخرافية الطقوس إلا مظهرا لتلك الجذور المتأصلة . الكاهن يقدم « للمصلين » خبزا هو فى زعمهم الغريب جسم المسيح ، ويقدم لهم خمرا هى فى زعمهم السخيف دم المسيح ، فما خرجوا من كنيستهم إلا وقد أكلوا ربهم وشربوه . والأوثان المنحوتة والمصورة ملء العين أنى توجه النصرانى ، فى البيوت والأماكن العامة والمعابد .

كل ذلك مما امتزج فى أذهان الدعاة النصارى الإغريقيين والرومانيين على مر العصور ، وفى نفوسهم وعاداتهم ، ثم برز وكأنه هو الدين . فلما اكتشف النصارى حضارة اليونان والرومان فى عصر « النهضة » انفتحت لهم بحار واسعة لتعود فيها مياه الوثنية وتلتقى تياراتها . واكتشفت النخبة المتعلمة أصالتها فى الحضارتين الوثنيتين القديمتين ، واعتمدت على تلك الأصالة لتجذر حربها ضد الكنيسة . فمن الخطأ أن يظن أحد أن الحضارة المادية المعاصرة تستند إلى شىء غير ميراثها الوثنى القديم من أثينا وروما . وما بقى من ظلال اليهودية والنصرانية لا يتعدى زخارف ثقافية احتفظ بها للتجميل ، أو عاشت على الهامش . والكنيسة اليوم رغم ثروتها ودولتها هامشيةٌ بكل معيار ، بعد طوفان القومية والعلمانية .

الانتماء القومى الذى انعقد دولا قومية فى أوربا حادث لا يتجاوز عمره قرنا ونيفا . لكن جذوره تمتد إلى الاعتداد الرومانى بالمواطنة الرومانية ، وإلى صلف الرومان واحتقارهم للشعوب عصبية وحمية هى العنصر الأساسى من عناصر الجاهلية الثلاثة .

العنصر الثانى هو الجهل بالله عز وجل . إنه سرعان ما تبخرت الروحانية الشرقية المنبثقة عن الرسالة المسيحية ، ورسالة سيدنا عيسى عليه السلام هى الإسلام بعينه فيما يرجع للعقيدة ، عقيدة التوحيد ، والإيمان باليوم الآخر ، والجزاء والعدل بين الناس . سرعان ما تبخرت الروحانية التى عاشها الحواريون والمؤمنون ولم يبق بعدهم إلا مسحة روحانية نسبناها للشرق عموما لنعرف مستقرها الأرضى بعد أن انقطع نسبها السماوى . تبخرت تلك الروحانية الشرقية تدريجيا ، وحل محلها الجمالية الوثنية الإغريقية ، والشعرية الأسطورية الإغريقية ، والطقوس الوثنية الإغريقية . كان الإغريق يعبدون « آلهة » يسكنونهم فى جبل الألمب فى خيالهم الأسطورى . كان لهم كبير « الآلهة » يسمى زوس وله زوجات وخليلات ، وكان لكل صناعة وفن ومرفق من مرافق الحياة « إله » خاص ، ولكل بلدة « إله » يحميها ، ولكل أهل خرفة « إله » ناصر ، ويتبارى المثالون والنحاتون فى تجسيد « الآلهة » أصناما لها معابد وسدنه وميزانية . كل هذا ترجمته النصرانية فاعتقدت وجود إله أب ، وابن ، وروح قدس ، وتعلقت أوهامهم بمريم العذراء عليها السلام فألهوها. و عمدوا إلى بعض موتاهم فأحلوهم محل « الآلهة » الإغريقية الثانوية ، ومثلوهم وعبدوهم ، ونذروا لهم النذور ، وقربوا لهم القرابين ، واحتمت بهم المدن والحرف . الآن لا تكاد تسمع أو تقرأ أو تبصر فى حياة أوربا الثقافية والفنية إشارة إلا إلى تلك الأصول اليونانية . الألمب و« آلهته » وأساطيره وشخصيات خرافاته هى الإطار المرجعى ، لا الكنيسة وشخصياتها . رجعت المياه إلى مجاريها والعهر اليونانى والعرى ، وعبادة الجسم، وتأليه الجمال ، ومقاسات الفن . كل ذلك ينبع الآن من أصله الصافى .

أستأذن القارئ الكريم فى وقفة لنتأمل نقطة هى عندى من الأهمية بمكان . هذه « الآلهة » التى عبدها اليونان ، وعبدتها الشعوب الوثنية ولا تزال ، ما هى ؟ وما أصلها ؟ إن هنالك وثنية حية اليوم ، كما كانت دائما فى أفريقيا ، وآسيا ، وأوربا ، وأمريكا الجنوبية . ونضرب الولايات المتحدة الأمريكية الرقم القياسى فى تنوع هذه الوثنية ، وانتشارها ، وتلونها . لا أقصد هنا الوثنية المادية ، وثنية السلعة أو وثنية الجسم البشرى أو ما شابه . أقصد الوثنية الحقيقة ، العبادة ، القربان ، الاعتقاد . دارت الأمور دورتها ، وعادت أروبا وأمريكا جنبا إلى جنب مع الشعوب البدائية إلى الوثنية الأصلية ، ومن أشكالها وثنية اليونان . ما معنى هذه الوثنية وما مبناها ؟ إننا نحن المسلمين نبرهن عن جهل إن إكتفينا

بالموقف السلبى فى هذا الموضوع ، الموقف الإيجابى أن نفهم وأن نعلم غيرنا . والحق معنا فى كتاب الله عز وجل .

قال الله تعالى يخاطب خلقه من بنى آدم : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى . هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا . أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ (12) . وفى كتاب الله العزيز وصف شامل لإضلال الشيطان بنى الإنسان ، والتغرير بهم ، والوسوسة لهم ، والتزيين والإلقاء . من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فهو يؤمن بالغيب ، ومما غيب عن أعيننا الجن ، ومن الجن شياطين وقرناء . فهذه الآلهة التى كان يعبدها كفار العرب ويسمونها اللات والعزى ومناة هى مظاهر مادية من ورائها شياطين بأعيانها وأحزابها وعشائرها . كذلك زوس وفولكان وأفروديت عند اليونان ، ما هى إلا مظاهر لشياطين بأعيانها وأحزابها وعشائرها والعبادة نفس العبادة . فى أمريكا الجنوبية والوسطى وأفريقيا يسمى التعبد للشياطين فودو ، وفى مصر والسودان والشرق يسمى زارا ، وفى المغرب يسمى دردبة إلخ .. عبادة الشيطان ، من عهد آدم عليه السلام ، تزاحم عبادة الله عز وجل ، والقرآن شاهد . وليس من اختراع الخيال ما ينسبه اليونان وكل عابد للشيطان من أحداث أبطالها ما يعتقدونه آلهة ، بل هو التزيين والإغراء ، والإجلاب بالخيل والرَّجل ، والاستفزاز ، والوسوسة التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز ونسبها للشيطان .

هذه إذن الركيزة الثانية للجاهلية : الجهل بالله عز وجل ، وهو كما نرى فى كل جاهلية تستحق الاسم ، مثل جاهلية العرب العتيدة وجاهلية اليونان ، جهل مركب . إذ يعتقد الجاهليون أن لهم آلهة حقا ، يذبحون لها ، ويسمعون منها أو يترجم عنها الكاهن ، ويناجونها ، وتتراءى لبعضهم ، وتخبرهم بواسطة الكاهن أو فى منام أحدهم ويقظته بأحداث .

لا أدرى ما نوع العلاقة العاطفية التى تربط عشاق الجاهلية من المثقفين العرب ، الناطقين عن الهوية والأصالة ، بهذا التراث الشيطانى . العقلانية التى يتقدمون بها لا تقبل بالطبع المقولات الغيبية كالجن والشيطان والملائكة . لكن ما وراء ذلك ؟ أية وثنية تقبع وراء العقلانية الإلحادية وتنتظر فرصة للظهور ؟ .

---

(12) يس : 60 : 62 .

الركيزة الثالثة للجاهلية هى العنف الجاهلى . وأى إمبراطورية كانت أشد وطأة وأكثر وحشية من الإمبراطورية الرومانية ؟ لا جرم أن تكون الحضارة الأوروبية المعاصرة لا تؤمن إلا بالقوة ، ولا تبنى إلا على القوة ، ولا تتعامل إلا مع الأقوياء ، ولا تحترم إلا القوة ، ولا تخاف إلا من القوة ، ولا تقيس إلا بمقاييس القوة . القوةهى المظهر السياسى للجاهلية . إذا كانت القومية هى الأساس والمبنى ، وكانت الجهالة الوثنية بالله العلى القدير هى اللب والمعنى ، فإن السيطرة بالعنف ، والاستكبار الفرعونى فى الأرض هما الوظيفة الحيوية ، والرسالة الحضارية .

إذا كانت القومية هى جذور هذه الشجرة الجاهلية وجذعها ، وكانت الوثنية الجمالية اليونانية فروعها ونضارتها ، فإن ثمرة تلك الشجرة الملعونة هى العنف والإفساد فى الأرض .

التركيبة الجاهلية فى المجتمع الذى يتخذه بعض ذرارى المسلمين نموذجا هى كما رأينا :

1) الأصالة القومية ، وفى ركابها الزهو بالعرق واللغة والتاريخ والتراث .

2) العنف الجاهلى ويتجلى فى الحروب القومية ، والحروب الاستعمارية ، والحروب الطبقية ، والحروب بوسائط الدول المستضعفة ، وصناعة الأسلحة المخربة ، والقنابل النووية وعسكرة الفضاء .

فإلى أى مستقبل توجهنا الدعوة القومية ؟ وإلى أية وثنية ستنتهى العلمانية بالمتعبدين لها ؟ ثم أين القوة التى بناها القوميون والعلمانيون منذ هذه الستين سنة التى حكموا فيها بلاد العرب المسلمين ؟ أين القوة التى صنعها مصطفى كمال وأتباعه ومذهبه القومى العلمانى منذ أن اغتصب الحكم واغتصبه أتباعه فى بلاد الترك المسلمين ؟

إن هو إلا تقليد فاشل ، تقليد الفاشلين ، تقليد الضعفاء للأقوياء . وإنه لا مناصَ من مواجهة العالم الجاهلى بالسلاح الوحيد الذى يرهبه ، ويكرهه ، ويحقد عليه حقدا مزمناً ، ألا وهو الإسلام .

شبح الحروب الصليبية

هذا الفصل فى موضوع العلمانية تطاول وتشعب ، فإذا بنا فى الجن والشيطان والوسوسة. ما علاقة هذا بعنوان الفصل؟ وما موقع الفصل برمته من استراتيجية الكتاب ؟

كنا وضعنا فى كتاب « **مقدمات فى المنهاج** » صيغة المنهاج النبوى وحركته وجدليته ، فإذا بنا هنا فيما يتراءى نصف. من جانب التحزب لله تعالى وللإسلام، واقع الآخرين وتاريخهم فهل زغنا هنا عن الموضوع الذى أسسناه هناك ؟

إن معرفة ما يعترض طريق السالك إلى الله عز وجل ، وما يهدد تنهيج قلبه وتنهيج عقله ، وما يعرقل سيره إلى الله تعالى داخلة فى شرط هذا الكتاب ، حسب تعبير علمائنا.

وإن معرفة ما يعترض طريق حزب الله عز وجل ، وما يهدد تنهيج إراداتهم وتنهيج حركتهم ، وما تصطدم به خطاهم وهم يواجهون الواقع ، داخلة فى هذا الشرط .

وإننا إذ وضعنا اللسان العربى والتراث ، ونظرنا فى الأصالة والتحديث ، وطرحنا العلمانية للبحث سرنا سيرا متسلسلا حتى توسعت دائرة أبصارنا فى الزمان والمكان ، فإذا بنا وجها لوجه مع الواقع الكامل ، مع الجاهلية الرابضة بكل أفق أمام حركة الإسلام .

من يحصر أفقه فى التناقض العينى المحس المباشر الوقتى بين إسلام متحرك وحضارة مادية ماثلة تعترض طريق الحركة وتعاكسها وتناصبها العداء وتقاتلها دون أن يستفسر التاريخ عن روح تلك الحضارة ، وعن كونها مظهرا وقتيا لنفس الجاهلية التى بعث الله لقتالها الأنبياء ، فقد تقصر نظرته ، وقد تغيب عنه الخصائص المعنوية والمادية للإسلام إذا لم تتضح أمامه الخصائص المعنوية والمادية للجاهلية . خوفا من هذا القصور نربط الفكر العلمانى الذى لا مناص من التعامل معه ، لأنه يكون شطرا من واقعنا ، بأصوله الجاهلية . فإذا عرفنا أصله وفصله وأين نشأ وبم يتغذى ، أدركنا أن المعركة معركة واحدة ، هى المعركة بين الجاهلية والإسلام ، ولم نجزئ نظرتنا ، ولم نبعثر جهودنا.

يذكر عنوان هذه الفقرة بصيغة مألوفة فيما يكتبه بعض الإسلاميين حين يتحدثون

بشاعرية وانفعال ورثاء عن مصير الإسلام المهدد ، وضعفه الحاضر ، والمؤامرات المحيطة به . كلمات « شبح » و « حروب » و « صليبية » من قاموس الخطابة الانفعالية ، لكننا نستعملها بقصد آخر . نستعملها لوصف الكيان المعنوى الذى يُشبه الشبح فى تخفيه وإلحاحه وغشيانه ، ولوصف حروب فعلية تاريخية مضت وأخرى قائمة ، ولوصف واقع صليبى يتجلى هذه السنوات فى كره الإسلام وقتاله ، وفى ظهور العداء السافر المنظم للمسلمين . فى ظهور حزب سياسى فى فرنسا مثلا شعاره وبرنامجه طرد العمال العرب والمسلمين من فرنسا.

ويمكن من هذه الزاوية أن نقيس الوجود السياسى الرسمى للصليبية فى فرنسا قياسا إحصائيا . فقد نال حزب لوبن الصليبى أحد عشر بالمائة من أصوات الناخبين لعضوية البرلمان الأوربى . لا تسرع فتظن أن عنصرية سياسيى اليوم لا دخل لها بالصليبية .

نصف واقعا معاديا لحركة الإسلام ، لكن لا الرثاء للذات رائدنا ، ولا وجود مؤامرات فعلية يغلق علينا سدول العجز الناشئ عن الجهل والكسل ، ولا قوة العدو ومكره يلجآننا إلى الهروب من ميدان المواجهة تحت حماية الجبرية الموروثة لنمسح فى القضاء والقدر نتائج تصورنا الفكرى والعملى المخطئين . نرجو . نرجو أن يعطينا الله جلت عظمته ذلك الوضوح فى الرؤية وذلك المضاء فى العزيمة ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به . ونرجو منه عز شأنه التوفيق والنصر .

عرضنا كيف انمسح المجتمع الأوروبى من طلاء النصرانية ، وكيف عاد إلى وثنية أصوله اليونانية الرومانية . لم يبق إلا شواذ من الناس يتدينون بذلك الدين ، وإلا الكنيسة البابوية ونسيباتها البروتستانتية والأرثوذكسية المنتشرة فى العالم . ولهذه الكنيسة مخططاتها وأجهزتها ووسائلها . لا تزال هذه الكنيسة تحمل معها التوجه إلى العالم لتبلغه « رسالة الخلاص » . هناك تنصير منظم ، جيوش مجهزة بالأموال ووسائل النشر والإتصال . جامعات ، وإرساليات وخيريات ، وجرائد ومجلات ، وإذاعات وتلفازات . إنها نوع معاصر من نفس الاتجار بالدين الذى عهدناه. الشواذ من الأوربيين والأمريكيين - وهم فى أمريكا كثرة - الذين لا يزالون يترددون إلى الكنائس يغدقون العطاء للكنيسة التى تعبئ الرؤوس التنصيرية لاستنهاض نخوة النصرانى المكتظ بالمال والمتاع ليلقى بعض فضوله

للشعوب « البدائية » الجائعة المسكينة ، عساها تتعرف من خلال الإحسان على المخلص وطريق الخلاص . والمكتظ يتخفف ضميره بما يلقيه .

جيش ، وأركان حرب ، وتعبئةوتحكمات موقعية ، واستراتيجية وبرامج ، وقيادة . إنها حرب التنصير الصليبية . صليبيتها بالنسبة لكل الشعوب ما عدا المسلمين تعنى أنها تنتشر تحت رمز الصليب ، وما يشير إليه الصليب من دين . أما بالنسبة للمسلمين فهى امتداد للحروب الصليبية التى دامت اصطداماتها العنيفة بيننا وبينهم قرونا .

هذه هى الواجهة الحركية لامتداد الحروب الصليبية . وإن لها لمعارك يومية قائمة. لنقل غزوات لأن من يقاوم الغازى لا وجود له حتى تكون المسألة معركة . فى كل يوم للتنصير . مكاسب . فى كل يوم ينصر مئات وآلاف من أطفال المسلمين الذين مات عائلهم . فى كل يوم تكتسح الثقافة النصرانية مجالات واسعة ، وتحتوى شبابا متكاثرا ، ما معى إحصائيات ، لكن من المؤكد أن أندونسيا المسلمة هى الآن الميدان المفتوح للغزو التنصيرى الصليبى . الجماعات الإسلامية هنالك تقاوم ما أمكنها . لكن مساندة الحكم العلمانى غير المحدودة للنصارى لا تسمح أن يكون هنالك معركة حقيقية . هنالك ينادى حال النصارى : يالثارات الحروب الصليبية ! .

الواجهة الثقافية للغزو الصليبى المعاصر تتمثل فى الاستشراق ، كان الاستشراق ولا يزال سلاحا معرفيا يحارب به الاستعمار الأمة الإسلامية . كانت بحوثهم ترمى لاكتشاف تاريخنا الماضى ، واكتشاف خصائصنا الإثنولوجية وعاداتنا وحركات قبائلنا ، وروابط مجتمعنا ، وأفكار خاصتنا وعامتنا واتجاهات فكرنا ، لتصوغ من كل ذلك معلومات يبنى عليه الاستعمار سياساته ، وكان لهذه البحوث ولا يزال جانبها الغاطفى المحض ، جانب الحقد على الإسلام ، واحتقار الإسلام والمسلمين ، ذلك الإحتقار الموروث . وبهذا كانت ولا تزال الدراسات الاستشراقية تؤدى مهمتين اثنتين : ما فيها من معلومات موضوعية يتراكم فهى محصلة « علم الاستعمار » ، وما فيها من إيديولوجية تحارب الإسلام يسرى سموما ثقافية ليُكرّه للمسلمين دينهم فينسلخوا عنه . كان المستشرقون ولا يزالون يتبعون فى دراساتهم منهجيتين ، تتصاحبان أو تتناوبان ، ولا تتنافيان فى هذه العقول العبقرية . إحداهما منهجية الاستقراء العلمى الدقيق وفحص المعطيات تهيئاً لاستنتاج علمى . وهذه

تخصص لما يخدم « علم الاستعمار » . والأخرى هي منهجية النتائج المسبقة التي يذهبون أشق المذاهب وأكثرها تعسفا على التاريخ والواقع الحاضر ليثبتوها بشواهد مصنوعة محبوكة.

لا يعدل النشاط التنصيرى العملى اليومى العسكرى الذى يصادر الضمائر ويقتطع الحياة إلا النشاط الاستشراقى الذى يصادر العقول ويقتطع الثقافة . وما هما إلا وجهان لنفس الحقد الصليبى الموروث ، سواء شعر المنصر والمستشرق شعورا آنيا ، وقصدا قصداً آنياً أم لا . العبرة بالروح السارية ، العبرة بالصورة المشوهة التى يرسمها المستشرق عن الإسلام والمسلمين ، وبالتشويه الذى يحدثه الآخر النشيط المتحرك فى حياة المسلمين ومجتمع المسلمين.

تلقى فيالق التنصير الدعم المادى السخى والدعم المعنوى من مجتمعات الغرب ، لا تمثل مساهمة النصرانى الشاذ بتدينه إلا جزءاً بسيطا من موارد التنصير . الكنيسة ثرية إلى حد التخمة . مصارف وشركات ، ومعامل ، وعقارات ، ومدخرات ، ثم هنالك التشريع القومى الذى يفتح باب التبرع ويشجعه فى الولايات المتحدة الأمريكية . كل مال تبرع به الأفراد أو الشركات للأعمال الخيرية يخصم من الضرائب . وأول من يستفيد من هذا الباب المفتوح التنصير .

وتلقى فيالق الغزو الثقافى مثل الدعم المادى والمعنوى . إن المجتمعات الجاهلية تزداد شعوراً بأن التنصير والاستشراق طلائع لنشر حضارتها . وفى مطبخ العواطف الجاهلية يمتزج الشعور الإنسانى الشريف بضرورة العطف الإنسانى على الإنسان ، والدفاع عن حقوقه ، وإطعام الجائع ، بالشعور القومى ، بالشعور الجاهلى ، بندآآت المنصرين ، بتصويرات المستشرقين ، بتأليبات الأحزاب والمنظمات العنصرية ، بالمخزون النفسى الصليبى ، فتعطى الطبخة طعاما يقدمه المنصر والمستشرق والإعلامى ألوانا ونكهات ليعود فى حلق تلك المجتمعات المطوية على كره الإسلام يغذى فيها الشعور ، وليلتهمه المقلد البليد من بنى جلدتنا ويستلذه ويتمثله ، فإذا به منصر مستشرق ، دسيسة للعدو بين ظهرانينا ، ظاهره الطلاء الإنسانى التقدمى ، وباطنه من قبله العذاب . وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حقيقة الحروب الصليبية اليوم

الحروب الصليبية التى تحمل هذا الاسم فى التاريخ دامت ، مع انقطاعات ، مدة مائة وخمس وسبعين سنة من سنة 1095 إلى سنة 1270 ميلادية ، لكن الاصطدام بين الإسلام والنصرانية ابتدأ مبكرا واستمر إلى مطالع هذا القرن . ثم استمر إلى يومنا هذا صراع بين المسلمين والدول الاستعمارية بعد أن لم تبق للأمة دولة . يكفى أن نذكر بالقتال البطولى والمقاومة الفذة التى واجه بها المسلمون فى الجزائر واحدة من أقوى الدول القومية النصرانية . وقد تجد من يجسر على تزوير التاريخ مع قرب عهده فينسب المقاومة الجزائرية لواقع قومى أو « تقدمى » ثورى . وما صمد الشعب المسلم ثمان سنوات إلا بالنداء الإسلامى الذى سمعه ولباه الفلاح فى أقاصى جباله وصحرائه ، والمستضعف الذى قاتل « الكاورى » لكفره قبل قتاله لكونه مستعمرا . هكذا كانت الدوافع الحقيقية ، ولمن شاء أنِ يُلبس التاريخ ثياب الزور فله الحرية فى أنْ يبرهن على سوء نيته وغبائه . سرق العصرانيون تلك الثورة المسلمة ، فهم ينسبونها لغير فراشها ، والعهر السياسى ألوان . ويجدون فى الجو الثقافى المغرَّب قبولا لتفسيرهم ، لأنه أكثر ملاءمة لروح العصر أن نتحدث عن ثورة شعبية جماهيرية ، فعندئذ تكون مفخرة ويكون النصر على مستوى تقدمى اشتراكي . أما أن نذيع أنها حرب بين المسلمين وأعدائهم فى الدين من حيث كونهم مسلمين ومن كون أعدائهم كفارا معتدين ، فهذا تخلف وكسف لصورة الحادثة التاريخية العظيمة بكل مقياس .

كنت أستمع أمس إلى ريجيس دبرى المفكر الماركسى الثورى الفرنسى الشهير رفيق شى كفارا فى حروب العصابات بكلولومبيا فى أمريكا الجنوبية يجيبهم عن أسئلة حول كتاب له حديد بعنوان « الإمبراطورية ضد أوروبا » . وأوقفنى فى كلامه لما سألوه عن الإسلام الصاعد وما يمثله من خطر على الحضارة الغربية ما مؤداه : « ماتت الماركسية ، أو ما يسمى ماركسية ، تاريخيا . وليس هنالك فكرة أو عقيدة تدفع أصحابها ليركبوا شاحنة من المتفجرات ويقتحموا بها العدو إلا الإسلام » . هذا أدرك معنى استعداد المسلم للموت فى سبيل الله ، معناه التاريخى الحاسم . علِمَه ذلك وعلمه عقلاء العالم ، ما عدا المزورين

من بنى جلدتنا . جهاد المسلمين الفريد فى جنوب لبنان بعد أن لقنهم مبادئ هذا العلم مقاومة الشعب المسلم الأعزل فى الجزائر أعْتى قوة فى أوربا .

هذا مضى . والحرب الإسلامية فى أفغانستان مستمرة بين الإيمان الأعزل والدبابة ، بين أعنف جهاز عسكرى عرفه التايخ البشرى وأقله إنسانية وأشده وحشية وبين الشعب المسلم المسلح بإسلامه الشعبى التقليدى . فماذا يكون لو تجددت الأمة وتجدد إيمانها ؟ خوفا من هذا هب القوميون البعثيون فى العراق ليقتلوا فى مهدها ثورة إيران الإسلامية بمشاركة من طرف دول الاستكبار العالمى قاطبة .

كل هذا العنف المبرمج والعفوى يدخل بشرعية معقولة تحت عنوان « الحروب الصليبية » حتى ما كان من غزو السوفييت لأفغانستان . ما فعل الحمر الملحدون إلا تكملة حروب صليبية قادها الحكم القيصرى من قبل ضد بخارى وطشقند ، ضد شعوب التركستان والقوقاز والطجكستان . نسأل الله جلت قدرته أن يعيد للإسلام تلك الديار ، وأن ينصر إخواننا فى أفغانستان وفى كل مكان . لا نملك غير ذلك . وقد سألنى يوما قاضى التحقيق : « لماذا نشرتم فى صحيفتكم صورة مجاهد أفغانى ببندقيته ؟ ولماذا تكثرون من ذكر « الجهاد » ؟ .

إن استيقاظ المسلمين وقدرتهم على المقاومة ، واستعدادهم للموت فى سبيل الله ، زاد من فزع أعداء الإسلام ، وأرعب نفوسا وعقولا نشأت فى الجو الثقافى الذى تحدثنا عنه آنفا . منذ نحو شهر (أكتب اليوم السبت 6 شعبان 1406) اقتحمت فتاة مسلمة دون العشرين بشاحنة المتفجرات سربا من العربات المصفحة اليهودية فى جنوب لبنان . هذا الخبر وأمثاله صَعَق العالم الصليبى صعقا . إنها تعبئة جهادية ما سمع العالم بمثلها . وما سمعنا أنه كانت امرأة فى صفوف الكامكاز اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية .

أستأذن فى فتح قوسين سريعين هنا . لعل أحد المؤمنين يسأل ، وسؤاله فى موضعه ، عن حكم الله فى أن يندفع مسلم أو مسلمة فى صفوف العدو وهو موقن أنه ميت ؟ بعبارة أخرى : ما هو حكم الله فى هذا النوع الجديد من خرق صفوف العدو ؟

روى أبو داود وابن أبى حاتم فى التفسير والحاكم وصححه ، وصححه الذهبى أيضا

عن أسلم بن عمران أنه غزا من المدينة تحت إمْرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مدينة القسطنطينية ، وفى الجيش صاحب رسول الله ﷺ ومضيفه فى بيته يوم هاجر أبو أيوب الأنصارى . قال أسلم : « والروم ملصقو ظهورهم بالمدينة » . يعنى أنهم كانوا على أشد تعبئة لحماية أسوارهم . قال : « فحمل رجل منا على العدو ، فقال الناس : مه ! مه ! لا إله إلا الله يلقى بيديه إلى التهلكة ! » .

كان أبو أيوب أفقه القوم فقال : « إنما تؤوّلون هذه الآية هكذا أن حمل رجل يقاتل يلتمس الشهادة أو يُبْلىَ من نفسه ! » يعنى رضى الله عنه أنهم فهموا الآية على غير وجهها إذ ظنوا أن التهلكة هى التماس الشهادة وإظهار أقصى الحرص والجهد في ذلك . قال : « إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . لما نصر الله نبيه قلنا بيننا خفيا [خفية] من رسول الله ﷺ : « هلم نقيم فى أموالنا ونصلحها ! » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ (13) . قال : « فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد » قال أسلم : « فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينة » .



(13) البقرة : 195 .

كونوا مع الصادقين

لا إله إلا الله ! التهلكة أن تشتغل عن الموت فى سبيل الله بمالك تصلحه ، لا أن تقتحم المخاطر وتموت لتحيى الأمة .

ولعل الحادثة التى أشار إليها الصحابى الجليل وقعت فى غزوة العسرة ، فى العام التاسع من الهجرة . وهى الغزوة التى نزلت بمناسبتها سورة التوبة التى تمثل دستورا كاملا للجهاد ، وبيانا شاملا لنظامه ، ودرسا وافيا لدوافعه وموانعه ، وإعلانا خالدا لنشر لوائه ، ومنشورا عسكريا فى تفصيل مهماته . وفى سورة البقرة هذا التوبيخ للذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة فيقعدون عن الجهاد ولا يحبون الاستشهاد . وأهم مشكلة تدور حولها سورة التوبة الكريمة مشكلة التخلف عن الجهاد . بمناسبة هذه الغزوة التنظيمية وقع الفرز بين المنافقين الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ الذين رغبوا بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ حسب التعبير القرآنى . ومعناه أنهم لم ينهضوا مع رسول الله ﷺ فى غزوته الشاقة تلك ، ولم يواسوه ، ولم يفدوه بأنفسهم . وكان من بين المتخلفين المؤمنين كعب بن مالك وصاحباه ، وقد كانت نازلة الثلاثة درسا لكل مسلم أبد الدهر ما دام القرآن تتلوه القلوب المؤمنة.

غزوة العسرة هذه وفقه أبى أيوب رضى الله عنه وموقفه مع جند الله أمام أسوار القسطنطنية تقفل الدائرة وتضع أمامنا عنوانا على بدء نهاية تاريخ الحروب الصليبية الممتد فى عصرنا ، عنوانا على صورة الفدائى المسلم .

كان الفداء والرغبة فى الاستشهاد الروح التى حملت أمة الإسلام بقيادة رسول الإسلام ﷺ وقدوته إلى الساحة التى كان متوقعا أن يكون فيها أول اصطدام بين الإسلام والنصرانية . هذا الاصطدام وقع بالفعل فى السنة العاشرة من الهجرة فى مؤتة ولم يحضر رسول الله ﷺ . لكن غزوة العسرة هذه التى جاءت بعد سنوات جدْب وجاءت فى عز الصيف ، صيف الجزيرة ، وجاءت وقت طيب التمر ، وقصدت مسافة طويلة عبر الرمال الحارة القاحلة إلى مشارف الشام . كانت المحك العملى الذى عليه عُيرت قابلية التعبئة بين

المؤمنين وعيرت قدرتهم على الإنجاز الشاق بالوسائل الشحيحة . ابتلى يومها بذل المؤمنين وسخاؤهم بالمال ، وابتلى صبرهم ، وابتلى حبهم لله ورسوله بالمقابلة مع حب الأهل والمال والراحة ، وابتلى وفاؤهم بالبيعة ، وابتلى صدق إيمانهم ، فتمايز المنافقون والمؤمنون ، تمايز المتخلفون والمجاهدون ، تمايز حزب الشيطان وحزب الله .

كانت هذه التعبئة التامة مقدمة بين يدى الصّدام الطويل بين الجاهلية العالمية والإسلام ، تلت الجهاد المحلى الذى قاده رسول الله ﷺ ضد الجاهلية العربية حتى دانت العرب للإسلام.

ومن السنة التاسعة للهجرة بدأت الحروب الصليبية . كانت واقعة مؤتة أول « تجربة » ، وكانت قاسية بعد استعراض العسرة ، وكأن الأقدار الإلهية شاءت أن لا يرحل المربى القائد حتى يتأكد من صلاحية صنع يديه الكريمتين . كانت العسرة مراجعة عامة ، تلتها المناورة « الحية » فى مؤتة ، و كان النقد الإلهى يتابع العملية ، ويشير إلى الخلل ، وينبه إلى الثغرات فى الصفوف ، أراد الله عز وجل أن لا يرحل أبو الأمة ومنشئها ورمز وجودها حتى يمر جند الله من عملية العيار . وكانت القيمة الممتحن فيها هى القابلية للفداء وطلب الاستشهاد .

ذكر الله عز وجل فى كتابه العزيز الثلاثة الأنصار الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة العسْرة وكيف ضاقت بهم الأرض بما رَحُبت لما قاطعهم المسلمون وأحسوا بأنهم جرثومة مرفوضة لرخاوتها فى مجتمع معبأ ، وذكر سبحانه توبتهم إلى الله ومراجعتهم لخصال الإيمان ونية الجهاد ، ثم توبة الله تعالى عليهم . وقال سبحانه بعد ذلك ليعلمنا كيف ينبغى أن يتخفف المجتمع الإسلامى من عناصر النفاق : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه .** ﴾ (14) فالكينونة مع الصادقين ، الكينونة مع الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، التحزب بصدق وفدائية مع حزب الله ، هى اقتحام العقبة ، هى الامتحان الدائم على صدق الجندية لله تعالى ، هى تتويج التربية وثمرة الإيمان . كيان متماسك ، حى من داخله بعلاقات المرحمة ، قوى على صد

---

(14) التوبة : 119 ، 120 .

العدوان الخارجي بعدَّة الصبر .

وندد الله تعالى بالذين يرغبون بأنفسهم عن نفْس رسول الله ﷺ . هذا هو رمز الإسلام ، حي ماثل مقدمِ على معركة . الإسلام مشخص فى رجل ، الأمة مدلول عليها بعزمه وقيادته وموقفه فى مقدمة الصف . فأولئك الذين لا تهب غيرتهم على الرمز ، ولا يحدثون أنفسهم بفدائه بالمال والنفس ، لن يستطيعوا يوما ، ولن يستطيع من هم على شاكلتهم ، أن يهبُّوا لفداء المرموز إليه الخالد ، وهو الحقيقة التاريخية لاستمرار الإسلام وانتصاره.

إن جند الله الذين برزوا من عرينهم كالأسود كانوا حملة رسالة هى أعز عليهم من أموالهم وأنفسهم . وكانوا نتاج تربية وتمحيص واختبار على محك الأحداث العسيرة . كان الأدب الاجتماعى عند العرب يقتضى أن يفدى الكبير والعزيز بالآباء والأمهات ، فيقال له عند الخطاب : « بأبى أنت وأمى ! » وهكذا كان الصحابة رضى الله عنهم يخاطبون رسول الله ﷺ. بيد أن الصيغة الأدبية لا تلبث ، بعد الالتحام العضوى بالجماعة الصادقة ، وبعد تغلغل حب الله ورسوله فى القلوب ، أن تصير تعبيرا عن نية ، عن إرادة ، عن تصميم . وتجيء الأحداث القاسية لتفرز أهل النفاق والارتفاق والكلام المعسول من الصادقين . ولمدى عشر سنوات اختبرت صفة الصدق فى الصف المجاهد . فى غزوة أُحد كان سيدنا أبو طلحة رضى الله عنه يترس بجسمه عن رسول الله ﷺ ، يعرض ظهره لسهام العدو مخافة أن تصيب الرمز المحبوب المفدى . ولئن كان الصحابة قالوا عن ذلك اليوم مخلدين الحدث : « اليوم كله لأبى طلحة ! » فإن أبا طلحة لم يكن الوحيد فى فدائيته . هذا سعد بن الربيع يخاطب المسلمين وهو يلفظ أنفاسه الزكية فى المعركة : « لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ! » .

وتدرجت التربية بجند الله من الولاء لرسول الله ﷺ إلى الولاء لله عز وجل . حتى إذا فجعتهم وفاة الرجل العظيم ، النبى الكريم ، وأخبرهم أبو بكر الصديق أن من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، كان ذلك إيذانا أن الإبَّان جاء ليرتفع المؤمنون درجة أخرى فى الصدق ، فتكون حياتهم وقفا دائما لله عز وجل ، مجردا عن كل مجاملة أو تعلة أو شبهة أو تعلق أو تملق تتستر وراء الولاء

للأشخاص.

نذكّر هنا بروح الجهاد عند جند الله بعد أن تعرضنا لشبح الصليبية لنؤكد على أن الذى يتصادم فى الميدان الدائم قضيتان تتجاوزان الأجيال والمكان والزمان . نستبشر لظهور الفدائية الإسلامية على الساحة اليوم بعد أن طال انحناؤنا الخانع أمام ضربات المعتدين . وإنه إن شاء الله تعالى لميلاد جديد للمعانى التى انتسج منها كياننا المعنوى ، تشخص جديد للذات الإيمانية الجهادية . تباشير ميلاد وتشخص على كل حال ، لأن الشباب الذى يرتمى على الدبابات فى أفغانستان ولبنان لم يتزود بتربية كالتربية التى أنشأت سعداً وأبا طلحة ولا قريبا منها ، كل زاده الميراث الحى الذى بقى كامنا هذه القرون الخامدة كما يكمن الجمر تحت الرماد . فهو الآن ينبعث بدعوة الإسلام . والحمد لله رب العالمين.

★ ★ ★

تاريخ الحروب الصليبية

كان الاصطدام على عهد عمر الفاروق ، رضى الله عنه ، بين المسلمين والنصارى البيزنطيين صداما عدائيا عنيفا . لكن واقعة اليرموك وما تلاها وسبقها من وقائع لم تكن إلا مناوشات فى أطراف الإمبراطورية البيزنطية . ثم إن نصارى المشرق البيزنطى الأرثوذكس لا يمثلون إلا جناحا ضعيفا فى النصرانية . لم تشعر روما ومؤسساتها المركزية بخطر . لم تمس النصرانية فى صميمها .

فى سنة 711 للميلاد فتح المسلمون مع طارق بن زياد الأندلس . هنا بدأ الصدام الحقيقى ، هنا شعرت النصرانية الأوروبية بالتهديد . ولم يمض نصف قرن حتى هبت الإمارات الشمالية فى إسبانيا القشتالية ، من ورائها تأييد الإقطاعية النصرانية والكنيسة البابوية لاستعادة الأندلس . ودامت حروب « الركنكستا » أى استعادة ما ضاع ، ثمانية قرون حتى سقوط آخر معقل إسلامى فى غرناطة سنة 1492 .

من خلال حروب الأندلس تعرفت النصرانية على بأس المسلمين وتعلمت كرههم . كما تعلمت من خلال معايشتهم المباشرة وبالوسائط الحضارة الفذة ومبادئ العلوم .

فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت الكنيسة قد بلغت من القوة ما يكفى لأن تعبئ أوربا عن بكرة أبيها . فحرضت على « الحرب المقدسة » لاستعادة القدس و « قبر » المسيح ، فى زعمهم الفاسد ، أمراء الإقطاع وعامة النصرانية . وهكذا لبى نداء البابا أوربان الثانى رعاع العامة وأمراء الفيودالية يتقدمون جيوشهم المجيشة .

واستمرت الحروب المسماة بالصليبية اصطلاحاً من سنة 1095 إلى سنة 1270 ، مع انقطاعات ، واحتل النصارى مدنا ومعاقل فى الشام وفلسطين ، وغزوا مصر وتونس . وكان نهاية هذه الحروب فشل النصرانية الكامل بعد أن احتلت بلادا لم تكن يومئذ قابلة للاحتلال الدائم ، لم يعد أهلها ، بعد الحقبة الأولى ، صالحين للاحتلال .

نلاحظ أن المبادرة كانت فى يد المسلمين فى القرن الأول ، قرن موسى بن نصير وطارق بن زياد. كانت المبادرة فى يد المسلمين قبل ذلك فى عهد عمر بن الخطاب لما

احتل المسلمون القدس. وكانت «الركونكستا» ردة فعل. وكانت الحروب الصليبية ردة فعل.

فى عصرنا أصبحت المبادرة فى يد الاستعمار منذ دخول الإنجليز الهند والفرنسيين الجزائر. وقد انجلى الاستعمار «الجسدى» وبقيت حقيقته. وهى هى الحروب الصليبية مستمرة متجددة وإن اختلفت المظاهر، وتخفت بواطن النيات. من اللقاء العدائى فى الأندلس تعلمت أوربا منذ طفولتها المبكرة علم أمة فى فتوتها ونضجها. من اللقاء على ساحات المشرق، ومن الاستيطان فى القدس وعكا وأنطاكيا، تعلم فرسان أوربا مبادئ حضارة متقدمة. والوضع منعكس اليوم. فمن المحتم ومن العسير معا أن نسجل منذ الآن حصيلة ما يبقى عندنا وما يجب أن يكنس من مخلفات الاستعمار. المرحلة التاريخية التى نعيشها مرحلة تصفية. ولئن كانت ضرورة اقتباس علم أوربا وتكنولوجيتها تتراقص فى ضمائر الأمم المغلوبة على أمرها فإنما هو ولوع الطفولة الحضارية بالوسائل الظاهرة القوية. وأسبق من اقتباس العلم والتكنولوجيا استعادة الذات، الكينونة، الوجود المتميز، الروح. أكون قبل أن أفعل. فإن تصديت للفعل ووجودى مبتور فالهزيمة محققة.

فى سنة 1099 احتل الفرسان الفيوداليون القدس وتوجوا ملكا عليهم بودوان الثانى. عاشت هذه المملكة ثمانية وثمانين سنة، حتى فتحها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبى، رحمه الله ورحم رجاله سنة 1187. ولم يكن انتصار صلاح الدين حادثة مفاجئة، بل كان نتيجة تهيؤ وإعداد واستعداد بدأه سلفه الملك الصالح نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله. لا نزكى على الله أحدا، نحسبه كذلك وتشهد له أعماله الصالحة.

★ ★ ★

التفتت التاريخي

﴿ **قل إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ (15) في هذه الآية الكريمة يلقن الله عز وجل نبيه أول المؤمنين ، ويلقننا بتلقينه ، موقف الإنسان الحر الذي وعى الغاية وعرف المنهاج ووطد العزم على سلوكه بكل ما أوتيه . صلاته ونكسه توجه قلبي لله عز وجل خالص . محياه وما في المحيا من مقومات مادية ومعنوية وعقلية وعلمية وعتادية هي من لوازم القوة ، كله لله رب العالمين . ومماته نُصْب عينيه ، ولقاؤه ربه عز وجل مطلبه ، فهو مستعد ليتقدم إلى الموت بخطى الثبات الذي يعلم إلى أين هو رائح ، ومن أجل أية قضية هو رائح .

هذا الموقف المنهاجي لم يكن فلسفة ولا كلاما يلقى لترَدّده الألسن ، بل كان عملا واعيا مؤثرا في التاريخ ، شاملا كل نشاط المجتمع ، موجها له . كانت هنالك جماعة حية حياة الإيمان ، حاملة على أكتفها وعبء الرسالة ، وعبء تبليغها ، وعبء الجهاد من أجلها بما يقضية الجهاد من بذل بلا حدود حتى بذل المهجة في القتال .

موقف واحد جمع العلم والعمل ، جمع الرحمة والحكمة ، تضافرت فية القلوب والعقول والجهود .

أمة واحدة ، جند معبأ ، أمامه طريق واضح لوضوح الغاية وهي لقاء الله عز وجل .

هذه صفات الذات الاجتماعية المجندة ، ولم نتعرف بعد للعقبة المتعرضة وسط الطريق ، لا استهانة بالموانع الموضوعية ، لكن إبرازاً للدوافع الذاتية .

أول ما يتعرض له المحلل المادي ، خاصة إذا كان ماركسيا ، أن ينظر في المقومات المادية ، في المنشأ الطبقي ، في وسائل الإنتاج ، في « المرحلة التاريخية » . ونحن عندما قدمنا في الفقرة الماضية أن الصراع في الحروب الصليبية كان بين قضيتين عنينا ضمنيا أن العقبة كانت جانب جند الله متجاوزة . في تلك الانطلاقة كان الناهج على الطريق ،

---

(15) سورة الأنعام ، الآية 162 .

كانت الأمة موحدة . فلما ضعف الناهج انتكست خطاه ، وتفتتت وحدته . أرجعْنا هذا التفتت فى عنوان هذه الفقرة للتاريخ لننظر العوامل الموضوعية كيف نخرت موقف المسلم الفرد ، وكيف بددت الجماعة ، وكيف أوهت القوة . والأمر للّه لا يفعل سواه ، ولن تجد لسنته تحويلا .

كان انتصار صلاح الدين وجنده رحمهم اللّه نتيجة إعداد واستعداد . كان نتيجة ترميم للوحدة ، وتجديد لتلك الروح الفدائية الأولى التى كانت قد ضمرت فى الخمسة القرون ونيف التى تفصل صلاح الدين عن البعثة المحمدية وعن تاريخ مولد الجماعة عام الهجرة . ثم ذهب صلاح الدين رحمه اللّه فتراجعت الأمور القهقرى ، وانتصرت عوامل التفتيت ، فما جمع الأمة بعد ذلك إلا القوة العسكرية المملوكية العثمانية الإسلامية التى لا يمل العلمانيون من بنى جلدتنا من ثلبها ونعتها بكل نقص ، مبرهنين على جهلهم بالتاريخ وتجاهلهم طبيعة المنحدر الذى هوت فيه الأمة .

بدأ التفتت التاريخى فى حرب صفين سنة ست وثلاثين للهجرة على الضفة اليمنى للفرات . مكان وزمان تقاطعت فيهما دوافع الاقتحام الصاعد ودوافع الانتكاس بعد أن تصادمت الإرادات ، وتناضلت العقول ، وتلا طمت أمواج الفتنة ، وتصاف المؤمنون ، وتقاتلوا ، وأفنى بعضهم بعضا ليلة الهرير ، وتلك الليلة الليلاء التى كان فيها بأس المسلمين بينهم أشد ما كان على طول أحداث السيف بين المسلمين وفداحتها . وبقى لتلك الليلة الشنيعة هذا الاسم الحيوانى لأنها كانت بداية لتقلص حيوانى فى الحكم ، وبالتالى لتقلص عام . الهرير صوت الكلب حين يُبرز أسنانه مهددا بالعض ، ونظام الملكية الذى تضرب جذوره لتلك الليلة سماه رسول اللّه ﷺ ملكا عاضا أو عضوضا . فمن يهر ، ومن يعض ؟ ليل ، هرير ، عض ، رموز وحقائق .

هذا الشرخ والانشطار بعد التحكيم كان بداية لتفتت لا يزال بالأمة يقطعها إربا إربا على مر القرون حتى انحلت كل الروابط الإيمانية التى تجمع المسلمين ، وتسطح الإسلام فى نسك فردى وصلاة صورية وحياة خانعة وممات على فراش الهوان . إننا والحمد للّه وله المنة نعيش اليوم فجر بعث جديد وتركيب جديد متجدد لكيان الأمة . نرى فرحين بفضل اللّه كيف عادت الصلاة والنسك حياة ، وكيف أصبحت الحياة جهادا ، وكيف يؤدى

الجهاد إلى الممات للّه رب العالمين لا شريك له كما أُمرنا . فللّه الحمد والشكر . ومن حمده تعالى أن نطالع سنته فى التاريخ لنتابع أسباب التفتت ، فنضعها موضعها فى تسلسل قانون اللّه فى الأمم والمجتمعات ، فنكون أقدر على فهم ما يحدث فى الأمة من داخلها ، وما يتسلط عليها من خارجها ، وما يهددها فى كل لحظة من انهيار داخلى لا قدَّر اللّه . والفهم مقدمة العمل لترشد إن شاء اللّه تعالى الحركة الإسلامية الناهضة .

كان التحكيم فى صفين إيذانا ببروز الخلاف المذهبى والسياسى . كان على عهد الصحابة رضى اللّه عنهم اختلاف فى الرأى يؤول فى العبادات والفتوى إلى تنوع وتسامح ، وفى السياسة إلى تشاور وتوافق ، وإلى عزمة الخليفة أمير المؤمنين . من التحكيم ظهر الخلاف ، وهو تعصب ، وتنافر لا توافق ، وتشدد لا تسامح ، وتكفير للخصم ، وقتال له ، واغتيال وتآمر ، وأحقاد ، وعداوات تتوالد على مر العصور وتتوارث . يهمنا بعد معرفة الأسباب العقائدية المذهبية التى صاحبت ظهور الملكية وانشطار الأمة أن نعرف ماذا تمثله اجتماعيا واقتصاديا الطبقة الحاكمة ، وإلى أى بيعة ينتمى الخوارج والشيعة . عندنا يسبق النزاع العقائدى فى الخطورة بمراحل كثيرة أسباب التفتت الأخرى ، طبقية اقتصادية سياسية إلخ .... عكس ما ينتحيه الماديون فى تحليلهم . وحدة الموقف فى الصلاة والنسك تسبق وحدة المحيا والممات . العقيدة معقد الكيان . سماع النداء وإرادة تلبيته يرد الظروف الموضوعية والنزاعات البشرية إلى مرتبة موانع يجب أن تقتحم . نقول ونعنى أن الإسلام لم يولد نتيجة توقان طبقى ، ولا كان لأسرة عربية مهما كانت عصبيتها أن تستولى على الحكم ، ولا للنظام الاستبدادى أن يستمر هذه القرون ، لولا النزاع العقائدى السابق « وركوب موجته » ، ولولا تغذية عوامل الانحدار وإضعاف عوامل الاقتحام بالرشوة والتزوير .

ها نحن عدنا إلى النقطة التى منها بدأنا تأملنا فى العلمانية ودواعيها . وسبق أن قلنا إن الإسلام لم يعرف التحريف لأن اللّه عز وجل كمل لنا ديننا قبل رحيل الرسول ﷺ . لكن انحراف من انحرف يفرزه ويفرده انحراف مذهبى وسياسى ، انحراف مذهبى نشأعنه انحراف سياسى ، انحراف سياسى برره انحراف مذهبى . أين وحدة الأمة ؟

إن بعض الباحثين العلمانيين يأبون إلا السباحة من أسفل التيار التاريخى لأعلاه عكس التسلسل الحدثى والمنطقى . فهم يريدون أن يلتقطوا كل حجة وكل شبهة لدعم دعوتهم

إلى فصل الدين عن الدولة ،أى إلى الإلحاد . فيتقهقرون بخطاهم إلى الوراء ، ظهرهم إلى الإسلام ومنبعثة ، ووجوههم إلى معبود الماديين : المستقبل . إشكاليتهم تبرير تعددية الإسلام التاريخية ، وتوجيهها ، وتجميدها . ونحن إشكاليتنا أمام التجمد التعددى ، أمام الانشطار التاريخى ، أن ننظر إلى المنبعث والمولد والنشأة والمراحل التاريخية ، ونتتبع خطوات الانحدار عن العقبة لنلتمس ونحن إن شاء الله فى صعود إلى الوحدة . انحدار كانت أسبابه النزاع المذهبى ومصائب الانحراف السياسى وجناية المُلك العاض والاستبداد.

هم يتهموننا بالمثالية عندما نعطى الأسبقية للعامل الذاتى ، ويتهموننا بالرجعية عندما نضع التحليل الطبقى فى المكان الثانى ، ويتهموننا عندما ننظر المبعث والميلاد والنشأة بأننا ماضويون . هناك أسلوبان لتفكير المستقبل ومواجهته ، أظن أن العلمانيين اختاروا أقلهما ذكاء . التراث عندهم مخلفات تُجُوزت . ونحن ، تاريخ ميلاد الأمة ، ونشأتها وصعودها وانحدارها ، درس لنا دائم . فما لديهم من حل ، إنما هو تسكع فكرى فقط لأن الأحداث تجاوزتهم ، إلا أن يلفقوا .

نزاعات مذهبية فانشطار ، فحروب فتنوية . وكان السيف على منحدر تاريخنا يصلت بين المسلمين أكثر بكثير مما كان يصلت على أعدائنا . مقتل الإمام على كرّم الله وجهه ، قومات آل البيت منذ الإمام الحسين عليه السلام فالإمام زيد ، الحرب السياسية ثم القتال بين شيعة آل البيت ضد الأمويين . انتصار العباسيين . الحروب المذهبية بين سنة وشيعة ، بين سلفية ومعتزلة ، بين معتزلة وأشعرية . فتن الزنج والقرامطة . قيام الدولة العبيدية الإسماعيلية . ولاية السيف وتضاؤل « الخلافة » العباسية . سيادة العساكر البويهية الشيعية ، ثم غلبة السلجوقية السنة . التفتيت العقلى الفلسفى للعقيدة .

ما من مذهب ظهر ، ولا حرب سياسية ، ولا ثورة ، ولا قتال بين المسلمين إلا وزاد التمزق فداحة . وكان الاستبداد أهم عوامل التفتيت مهما اختلفت الراية التى رفعها . فلا نصل إلى سنة 541 التى تولى فيها نور الدين محمود بن زنكى إمارة حلب إلا والأمة أشتات ، والصليبيون قد أسسوا مملكة لهم فى القدس الشريف منذ 48 سنة ، فكيف فعل صلاح الدين والحالة هذه حتى استطاع طرد الغزاة ، يا من يحلمون ببطل لمستقبلنا على صورة صلاح الدين المثالية ؟

الملك الصالح

يقول العلمانيون الواقعيون الذين لا تستهويهم متالية الأبطال : اطرحوا الدين فهو العرقلة . ولا ينتظر منهم أن يميزوا بين التحريف الذى حاد بالمسيحية الأولى فوضعها فى طريق التنصر الكنسى وبين الانحراف الذى حاد بالناس عن طريق الإسلام وبقى الإسلام هو الإسلام شاهداً على من انحرف ، متمثلا فى الاستقامة الأولى ، متجسدا فى النموذج النبوى الخلافى ، خالداً فى كتاب اللّه وسنة رسولة ﷺ وفى القلوب المؤمنة التى لا تزال بذورها صالحة توارثت الصلاح والصلاحية عبر قرون الانحراف والفتنة . هم يريدون أن نطرح الرضيع مع ماء الغسيل ، هذا مثل مترجم يفهمونه . ونحن نحب أن نحتفظ بالرضيع لأنه حى ، ولأنه قابل للنماء ، ونريد أن يتغذى بالغذاء الصحى الذى تغذى منه سلفه فى نشأته الأولى . أما الماء الملوث فليس طرحه باليسير . إن ما تراكم فى المجتمع المسلم من مخلفات التخويف الاستبدادى والنزاع المذهبى ، وصبغ السلوك بصبغة غير الصبغة الأولى صبغة الصادقين ، وطبعه بطابع الجمود والتعصب ومهادنة الاستبداد ، تراث لا يزال هو غذاء الإنسان الغثائى . هذا التراث الموبوء هو ما يحب التراثيون المنافقون أن يعتمدوا عليه حين يتملقون « المخزون » النفسى لدى الجماهير المسلمة . وخوضهم فى ذلك الماء الكدر يلقى ظلال التشويش فى ضمائر طبقة من تلامذة الجامعات ونفوسهم يغترون بإفرازات هذه البذور النكدة الفاسدة .

منذ أن أصبح الحكم بين المسلمين مُلكا وهَريرا وعضًا انتحت الدعوة ورجالها ، فلم تعد الدولة هى راعية الدعوة كما كان الأمر من قبل . لم يعد السيف فى خدمة المصحف، افترق السلطان والقرآن ، فحاول السلطان تفسير الدين لتبرير موقفه . سلطان قائم يبرر مشروعية بقائه ، وحق مناهض خذله الرجال لقلة ما معهم من إيمان (الإمام الحسين عليه السلام مثلا) . وباطل ثائر يلبس مسموح الدين (المختار الثقفى مثلا) . والفقهاء فى مواجهة مع أثل الفلسفة والإلحاد .

هذا التفتت فى الدولة والمذهب صاحبه تفتت فى الدعوة ، فتطوع أهل العلم والصلاح لتربية الأمة وتعليمها هنا وهناك ، الواعظ فى المسجد مع العامة ، والقاص

الشعبى بما معه من علم قليل . أمر تربية الأمة على الإيمان لم يعد القضية الأولى للدولة بعد انفراط عقد الجماعة الأولى وسيادة العصبية الأموية التى دعت نهوض مطالبات وعصبيات منافسة ومضادة . معنى الإيمان نفسه أصبح موضوع نقاش ومزايدة .فمن المهتدى ومن الضال ؟ كل حامل سيف سواء كان فى الحكم أو فى الثورة يزعم أنه البذرة الصالحة ، ووارث الإيمان ، وقلب الأمة النابض .

ويستمر الخلاف والتفتت إلى منتصف القرن السادس الهجرى حين يبرز الملك الصالح الذى أيد اللّه به الدين ، فرمم القاعدة الاجتماعية السياسية التى بنى عليها صلاح الدين الأيوبى الصالح الثانى القوة التى استعادت القدس من أيدى الصليبيين .

إننا لا نصدق أن الفرد البطل يأتى فيقلب الموازين ويصنع وحده تاريخا جديدا . لكننا لا نصدق أيضا أن الحتمية التاريخية ، هذه الماهية المحجبة العجيبة ، تقوم مقام الرجال وتعوض مبادرة الأفراد الصالحين الأقوياء . إن القائد القوى الصادق كان فى كل تاريخ النواة التى حولها ابتنيت الحركات ، العامل الاقتصادى السياسى يأتى من بعد . الاقتحام ذُكر فى القرآن قبل العقبة .

حول القيادة الصادقة تتبلور فكرة ، وتنعقد إرادة ، وتتكون جماعة ويبتدئ تاريخ جديد . كل هذا لا يتم فى الفضاء الذى لا يعوق الحركة ، بل يتم عبر العوائق النفسية والذهنية والاجتماعية بما فيها من أنانيات وعادات . ويتم بالاقناع وبالقوة ، ويتم بالصبر والثبات فى الزمن والخطى .

نعم سيدى ! لكن تعال نضع إصبعنا على مكمن من مكامن الداء العضال فى تكويننا النفسى الفكرى بل فى تكوين كل مجتمع ضعيف منهزم . هذا المظهر المرضى هو انتظار القائد الملهم ، ذلك الانتظار الذى عاشت عليه الأمة وتعيش ، فيبرر ذلك الانتظار الخمول. ما لنا وللسعى والتعب ما دام المصير مرهونا بظهور القائد البطل ! إنها خرافية خطيرة معششة مثبطة .

فى مجتمع مثل هذا يظهر رجل قوى يلهب حماس الجماهير ، لكنه يتحرك بنفس البناء النفسى الذى ورثه من مجتمعه . لم يتغير هو فى جوهره ، لم يتجوهر على حقيقة

المثل الأعلى الكامن فى « المخزون النفسى » للجماهير ترجمة صادقة . وقد تكون له إرادة ثورية ،و معه جماعة ثورية . مع مثل هذه القيادة تبتدئ حلقة من حلقات الصراع الحماسى ولا يبتدئ تاريخ . كان جمال عبد الناصر ذلك القائد الذى لوح بطموحات الاشتراكية لشعب أكلته الطبقية . لوح بطموحات التحرر من الاستعمار فى بلاد محتلة ، لوح بوحدة وعالمية لشعوب مقهورة محصورة . لكنه لم يربّ أمة ولا بدأ تاريخا . وإن الناصريين اليوم على الساحة يمثلون جناحاً مرموقاً من أجنحة القومية العلمانية ، وإن لهم الحق أن يسخروا من الذهنية الخرافية التى تجعل الأفواه مفتوحة إلى الهواء فى انتظار صلاح الدين الجديد المنقذ . لكنهم إن سخروا من خرافية الشعب الذى يتذكر بطولة صلاحنا وصالحنا الذى حرر القدس بعد إعداد دام أربعين سنة فالأحق بالسخرية « بطل » انهزم فى ستة أيام . وليذكروا بكاء الشعب فى الشوارع عندما استقال البطل المهزوم . ذلك اليتم الذى تجلى فى شهيق ونواح الجماهير فى الشوارع هومعيار الرجولة التى ارتفع إليها الشعب ، ومعيار التربية التى تلقاها الشعب فى ميادين الخطب وعلى أمواج الأثير . اهتزاز وارتجاج .

كان إخواننا الشيعة أكثر المسلمين « انتظارا» للإمام المهدى . نحن نعتقد بظهوره عليه السلام فى آخر الزمان . معنا لذلك أحاديث ثابتة ، وإن كان اختلافنا مع إخواننا الشيعة فى تعيين الشخص موجودا . كان إذن « الانتظار » عائقا نفسياً ثقيلاً عن كل تحرك . فمن أهم خدمات الإمام الخمينى للقضية الإسلامية أن أزاح هذا العائق ، ووضع « الانتظار » فى موضعه التاريخى ، أى فى مكان ما على خط امتداد المستقبل الذى يعلمه اللّه وحده ، بحيث يكون « الانتظار » حافزا للعمل لا معوقا . يقول : الإمام الخمينى : « واليوم فى عهد الغيبة [إى غيبة الإمام المهدى] لا يوجد نص على شخص معين يدير شؤون الدولة . فما هو الرأى ؟ هل نترك أحكام الإسلام معطّلة ؟ أم نرغب بأنفسنا عن الإسلام ؟ أم نقول : إن الإسلام جاء ليحكم الناس قرنين من الزمان فحسب ليهملهم بعد ذلك ؟ أو نقول : إن الإسلام قد أهمل تنظيم الدولة؟ ونحن نعلم أن عدم وجود الحكومة يعنى ضياع ثغور المسلمين وانتهاكها ! ويعنى تخاذلنا عن حقنا وعن أرضنا ، وهل يسمح بذلك فى ديننا ؟ أليست الحكومة ضرورة من ضروريات الحياة .» (16)

(16) كتاب « الحكومة الاسلامية » ، ص :48 .

لطول ما سطا الحكم الفردى على المسلمين ،ولطول ما انتصب الجبابرة أمام عينيه ، ترسخ فى الضمير الجماعى وفى الذهنية الجماعية أن الفرد هو منبع القوة . شهد لهذا الهاجس سياط الجلاوزة ، ونطع قطع الرقاب ، وبطش الجبارين الصغار خدمة للاستبداد وأعوانه.

القرون الطويلة من هذه التربية السلبية المنكوسة أنست مكان الخلافة ، وحرمة الخليفة ، وهيبة النائب عن ذلك الرمز المفدى بالمُهج والأرواح الرسول الكريم على اللّه عز وجل ، الساكن حبه فى قلوب المؤمنين مع حب اللّه تعالى .

الملك الصالح نور الدين بن زنكى ما بلغ به صلاحه مرتبة النيابة والخلافة ، وإن كان « الخليفة » العباسى الذى يحمل اللقب فى قصور بغداد دونه رجولة وصلاحا بما لا يقاس . ومن هم هؤلاء السجناء الضعاف معاصروه من بنى العباس : المقتفى والمستنجد ومن بعدهما المستضىء والناصر ؟

ولا كان الملك الصالح كالملوك الجبابرة أصحاب السطوة كالسلاجقة محتكرى السلطة الحقيقية فى عصره .

كان واحداً من صالحى الأمة المحافظين على أمانة الإيمان الشاهدين بالقسط . لم يكن ميدانه ميدان الدعاة والعلماء والمرشدين الذين يزخر بهم تاريخنا وإلى جهودهم الفردية المبددة يرجع الفضل فى رعاية الحقل وتربية البذور الصالحة ، وأقربهم عهدا بذلك التاريخ الإمام الغزالى رحمه اللّه والشيخ الإمام عبد القدر الجيلانى قدس اللّه سره . وكان الجو العلمى الإيمانى الذى استنشقه نور الدين فى يفاعته وشبابه جوا غزّاليا . كان ميدان نور الدين ساحة الجهاد التى كان ينوى دخولها ، فهيأ لها الأسباب ورتب أسباب القوة ، فشاء اللّه أن تستفيد الأمة من تأسيسه على يد خلفه من بعده صلاح الدين الأيوبى رحمهم اللّه جميعا وألحقنا بهم مسلمين .

* * *

تحـريـر الـقـدس

دام الوجود الصليبى فى بلاد الإسلام ثلاثا وثمانين سنة بعد تحرير القدس سنة1187 ميلادية . كانت حصيلة الحروب الصليبية الثمانية الفشل الكامل والارتداد ، لكن غُصَّة القدس كانت أمرّ ما تجرعه الصليبيون . لأن تحريرها من يد « الوثنيين » المسلمين كان الشعار الذى رفعوه منذ الانطلاقة الأولى . فى هذا القرن العشرين من تاريخ النصارى ، فى منتصف سنة 1948 ، أعلن اليهود دولتهم فى فلسطين ، واستولوا على ما كان فاتهم من أجزاء مدينة القدس سنة 1967 .

كان المسلمون يوم احتل الفرسان الصليبيون القدس فى مرحلة من مراحل التفتت التاريخى للأمة . وقد مضى على ذلك العهد اليوم قريبا من تسعة قرون استمر فيها التفتت . كانت الحقبة الثانية من العهد العباسى أواخر القرن الخامس الهجرى انحسار سريع . لكن الشخصية الإسلامية كانت لم تنمسخ يومئذ ، ولا منع تعدد الإمارات وتجزئة دار الإسلام وصراعات المذاهب من بقاء وجود سياسى ثقافى دينى له السيادة داخل سياج وحدوى ولو صورى هو « الخلافة » . أما اليوم فقضية تحرير القدس تنطرح على هذه الأجيال من المسلمين والتجزئة التى أصابت بلاد المسلمين كانت ولا تزال قطيعة ، والصلة بالدين أصبحت مسألة فردية ، تدفع إلى هذه العلمانية كل الأنظمة الحاكمة ، باستثناء تلك التى تتملق الشعوب الإسلامية البادئة فى الاستيقاظ بقطع أيدى السراق الصغار زعما أن ذاك هو تطبيق الشريعة .

تجزئة هذا العصر لدار الإسلام تقارن بتلك التجزئة الأولى ، إذ كانت تلك مذهبية أو استيلاء عسكريا داخل الإسلام ، وهذه تحملها إيديولوجية قومية تسعى لطرد الدين من المجال السياسى . لم يكن يومئذ أحد يتصور أن يستند الحكم والقانون والحياة الاقتصادية والعامة على شىء غير الاسلام مهما كان المذهب ومهما كان فساد الحكام وبطشهم . لذلك كان التوحيد الذى بدأه نور الدين ومن بعده صلاح الدين رحمهما الله لا يجد عائقا إلا مقاومة الأمير المستولى بالسيف . فكان السيف يقارع السيف ، وكانت « الدبلماسية » النورية والصلاحية تمهد الطريق ، وتُروّض الإمارات المحلية ، فإذا الأمة واحدة تسمع نداء

الجهاد فتتجه أنظارها للعدو المغير ، وتنسى لحظة الخلافات المذهبية . أما فى عصرنا فمحاولة التوحيد الناصرية اعتمدت الدعوة القومية الصرفة مع السكوت التام عن الإسلام إلا فى الخطب الحماسية ، عند التعرض لأمجاد التراث القومى .

نجاح الترميم النورى الصلاحى تمثل فى طرد الصليبيين من القدس بعد إعداد طويل ، وفشل التوحيد الناصرى تمثل فيما يسميه القوميون بخجل واستخفاء بالنكسة . محك التاريخ ، ومقارنة التاريخ ، يبرزان أن معالجة المجاهدين الأولين كانت معالجة ناجحة ، أعطت نتائج ، نتائج مؤقتة كما سنرى قريبا إن شاء الله . لكنها نتائج عملية : الأرض تحررت . أما معالجة المناضلين الاشتراكيين فدلت نتائجها العسكرية والسياسية والاقتصادية على أنها معالجة فاشلة ، بل هى سلبية تزيد الموقف حراجة وترديا .

إننا إذ نستعرض الترميم الجهادى لا نقصد أن نتخذه نموذجا ، ولا يمكن ، ولا يكفى . فإن التفتت الحالى ، وضخامة وسائل العدو الصليبى الذى اتخذ اليهود حلفاء يحاربنا بهم ، بل يحاربوننا به ، وقوة تماسك ذلك المجتمع المعادى ، لا يكفى معها توحيد ترميمى كما كان ذلك ناجعا فى إبانه ، يوم كان العدو فى درجة منحطة حضاريا ، وكانت الوسائل العسكرية والإقتصادية متكافئة ، وكانت مخترعات العقول لا تجعل من أحد الفريقين لحما على وضم ، لا يصنع سلاحا ، ولا يطور فكرة ، ولا يحسن حتى استعمال ما ينتجه الآخر . هذا بالإضافة إلى تفاوت الحافز القتالى حتى الأمس القريب قبل أن يبرز المقاتل المسلم الفدائى فتتهاوى أسطورة البطل الصهيونى الذى لا يغلب .

لا يكفى لمواجهة التحديات المعاصرة والمستقبلية إلا إعادة بناء الأمة ابتداء من تربية الفرد المؤمن الذى نذر صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له . ابتداء من التربية يجب أن ننطلق ، ثم نعيد التفكير فى كل جزئية فى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، نعرضها على المنهاج النبوى . ونصانع الواقع ، ونصبر على طول الإعداد ، حتى تتوج جهودنا إن شاء الله بتوحيد الأمة . لا تعوز بحمد الله البذور الصالحة، وفى رجال الدعوة تلتقى آمال الأمة بعد خيبة تلك الآمال فى قوم غابرين .

فى عهد ذلك الترميم كان رجال العلم والتقوى والدعوة يعمرون المساجد بالحلقات العلمية ويفتحون بيوتهم للناس . وكانت المنافسة المذهبية تغيم ذلك الجو ، شيعة يقاومون

سُنة ، حنابلة يتظاهرون ضد شافعية، قضايا خلافية تتطور إلى مواجهة فى الشوارع .

وكان « الخليفة » العباسى الجالس على الأريكة الرمزية ليس له من الأمر إلا الخطبة يذكر فيها اسمه ، وإلا تعيين الخطباء والقضاة . وظيفة الدعوة كانت غائبة تماماً من أفق أولئك المساكين كما كانت غائبة عن يدهم السلطة الفعلية . كانت الدعوة منفصلة عمليا عن الدولة . لكن ذلك الانفصال لا يقارن بحال من الأحوال بالانفصال العلمانى كما نشأ فى أحضان أوربا من محاربة فلاسفة أوربا للكنيسة . بل على عكس ذلك كان « الخلفاء » والسلاطين والأمراء يتنافسون فى تقريب العلماء البارزين ، ويتنافسون فى بناء المدارس ووقف الأوقاف . كانوا يفعلون ذلك فينالون به الذكر الحسن عند الأمة . ولم يكن فى ذلك العهد ، لم يبق فى ذلك العهد ، أى تميُّز بين المال العام والخاص . فما كان من واجب الدولة ، وهو دعم العلماء وبناء المدارس ، أصبح شأناً خاصا متروكا لأريحية مالكى البلاد والعباد .

كان المقتفى أول « خليفة » عباسى خرج نوعا ما من هيمنة السلطان المستولى السلجوقى منذ استبداد بنى بويه فى بغداد . قرب إليهْ واحدا من العلماء الشافعية البارزين هو ابن هبيرة واستوزره . فكان ابن هبيرة يحاول الاستناد إلى مكانته من المقتفى ليقوم بترميم الدعوة موازيا حركة نور الدين الذى كان يحاول ترميم كيان سياسى . كان ابن هبيرة يشجع نور الدين ، وكان له ركيزة عند المقتفى ثم عند المستنجد . واجتهد الوزير الصالح ، من وسط تلك القصور وفى وجه عوامل التفتت المذهبية ، أن يقرب بين المذاهب ويرأب الصدع بين أهل السنة ، فألف كتابه الشهير « الإفصاح » يفسر فيه صحيحى البخارى ومسلم وينشره لتقوية جانب السنة .

وعلى خطى ابن هبيرة فى دعم السنة سار نور الدين منذ توليه إمارة حلب بعد مقتل والده الأمير زنكى سنة 541 هجرية ، 1146 ميلادية . لم تمض سنتان على ولايته حتى أضاف دمشق إلى ولايته ، وأسس بها مدرسته الكبيرة « النورية » كان رحمه الله مثالاً للتقوى حريصا على إقامة العدل . وكان بطلا فى الحروب الصليبية المتتالية .

حصلت بيده إمارتان : حلب ودمشق ، وطد فيهما حكمه ، وأقام فيهما مرافق مثل دار العدل ، ودور المارستانات ، وقوى الجيش ،وأصلح المال . وفى سنة 559 بعث

شيركوه عم صلاح الدين ، وكان من أعيان جنده إلى مصر لغزو الدولة العبيدية . تلا ذلك الغزو بعثتان أخريتان مكنتا شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى من التمكن فى مصر سنة 564 .

كانت الدولة العبيدية تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن ازدادت عزلة الأسرة المتسلطة التى لم تستطع يوما أن تفرض مذهبها على الشعب . كان شاور وزير آخر « الخلفاء » العبيديين المستضىء هو رأس الدولة الحقيقى . فلما قتله شيركوه وتلقب بلقب الوزارة كانت الطريق مفتوحة لصلاح الدين ، إذ مات عمه بعد شهرين من ذلك ، فورث صلاح الدين الوزارة وقيادة الجيش النورى ، وما لبث أن أغلق القصور على أهلها وأعاد الخطبة للخليفة العباسى .

فى سبع سنوات أنجز صلاح الدين ، وقد استقل بالأمر بعد وفاة نور الدين ، هذه الإنجازات الضخمة : وحد مصر والشام والحجاز وطرفا صالحا من العراق وجهز جيشا مدربا ، وجمع أموالا طائلة أنفقها على الجهاد (ومات لا يملك ثمن تجهيز جنازته رحمه الله) ، وحاصر المعاقل الصليبية معقلا بعد الآخر يكسر أجنحة المملكة النصرانية فى القدس ، وأخيرا حرر الأرض المقدسة ، وحمَّل الصليبيين من أخبار كرمه ، وعفته عن الدماء ، وشهامته ، وشجاعة جنده ما اعترف به الصليبيون ولا يزالون رغم تعنتهم وحقدهم الدفين .

تحررت القدس فى « خلافة » الناصر العباسى ، وكان الناصر حريصا على استنقاذ السلطة من يد السلاجقة : حاول أن يعيد « للخلافة » العباسية أبهتها وقاعدتها ، لكنه لم يهتد إلا لاختراع نظام « ملشيات » جديد هو نظام الفتوة الذى يتميز أعضاؤه بلبس سراويل خاصة وباللعب بالبندق .

كان صلاح الدين رحمه الله مرمما موفقا بنى على أسس ابن هبيرة ونور الدين رحمهما الله : لم يكن سوى ذلك ، إذ مع وفاته تدهور ملك بنى أيوب ورثته ، وإزدادت « الخلافة » العباسية تدهورا : فلم تمض إلا ثمانون سنة حتى دخل التتار بغداد وظهر التفتت على حقيقته : أين ذلك الصحابى الفدائى الذى كان الموت فى سبيل الله أعز مطلب لديه ، أين ذلك الفارس الذى كان يخترق صفوف المستندين على أسوار القسطنطينية ؟

ابحث عن أسرار تربيته فى أعماق الإيمان بالله ورسوله . أما المسلمون الذين غزاهم التتار وكسر بيضتهم فهم أشبه بغثاء السيل الذى تحدث عنه رسول الله ﷺ وشبه به المسلمين فى مستقبل تفتتهم ، ووهن الإيمان فى قلوبهم ، وكراهيتهم ، الموت وحبهم الحياة ، أى حياة.

يروى ابن الأثير كيف دخلت امرأة تتارية مقنعة على جماعة فأخذت تقتلهم واحداً بعد واحد لا يقاومون . وكيف أمسك جندى تتارى بمسلم فقال له : ابق هنا حتى آتى بسكين ، فذهب ورجع بسكينه ليجد الخروف ينتظر الذبح .

★ ★ ★

الإلحاد المفلسف

أمر آخر جعل الترميم فى ذلك التاريخ ممكنا وسهلا نسبيا وكافيا للهدف المقصود ، هو ضآلة الإلحاد بين المسلمين يومذاك . كانت واجهة الدعوة رغم نزاعاتها الداخلية سدا قويا فى وجه الإلحاد ، ومعظم هموم العلماء محاربة البدعة . ثم إن الممالك التى وجدها صلاح الدين كانت مجانبة للبلاد الأكثر نزاعا مذهبيا وهى بلاد العراقيْن . فلم يعد هناك ، بعد سقوط السلطان الفاطمى فى مصر ، إلا المهمات العسكرية تكفلت بإزاحة حواجز غير ذات بال .

الإلحاد الفلسفى اليوم منغرز فى جسم الأمة ، ضالعة فيه طوائف من المثقفين المحترمين فى المجتمع بوجه أو بآخر . وهو يومئذ كان ظاهرة هامشية تماماً مقموعة مرذولة .

يقول الإمام الغزلى فى كتاب « تهافت الفلاسفة » يصف ضآلة الفلاسفة الملحدين فى عصره ، ولا نظن أنه وقع تطور فى الموضوع قرنا من الزمان بعده : « ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعى كتقليد اليهود والنصارى . إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم وأولادهم ، وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، وغير بحث نظرى صادر عن التستر بأذيال الشبه الصارف عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلا.مع السراب » .

كانت تلك الفلسفة إذن ستاراً سطحيا تختفى وراءه وراثة وتربية نشأ عليها أولئك ، كانت جرثومة من البيئة المحلية نفسها . أما الإلحاد المفلسف فى عصرنا فجراثيمه جاءت لأرض بكر غير أرضها التى نشأت فيها ، فهى فيها أشد فتكا . ويصف الإمام الغزالى رحمه الله الإعجاب بأئمة الكفر وتقليدهم فنجد نفس ما نعهده عند أهل زماننا . قال : « وإنما مصدر كفرهم سماعهم بأسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم ، وإطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم فى وصف عقولهم ، وحسن أصولهم ، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية » هنا يضع الغزالى إصبعه على سبب مهم من أسباب الإلحاد يومئذ وفى كل طائفة متفلسفة . لم يكونوا يومئذ يميزون بين الفلسفذ والعلوم ، فكانت صحة اختراعات تلك العقول الكبيرة فى الطبيعيات والرياضيات

دليلا فى نظر الأتباع المنبهرين بصحة مقالاتها فى الإلهيات . واليوم فى عصرنا لا يزال نفس البرهان معتمدا رغم ظهور التخصص العلمى فى مجالات العلوم ، فكل ما جاء به العقل الغربى حقائق لا جدال فيها : التخمينات الفلسفية سواء فى ذلك والكشف العلمى . كان ملاحدة ذلك الزمان ضحية للانخداع « القبل علمى » كما هم ضحيته زعماء الإبستمولوجيا المعاصرين من بنى جلدتنا . قال الغزالى يقلل عدد أولئك ويحقر من شأنهم : « وإنه لم يذهب إلى إنكارهم [أى الأنبياء] إلا شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة ، والآراء المعكوسة ، الذين لا يؤبه لهم ، ولا يعبأ بهم فيما بين النظار ، ولا يعدون إلا فى جملة الشياطين الأشرار ، وغمار الأغبياء والأغمار » .

لم يكن للعلمانية والإلحاد يومئذ سلطان على وجه الأرض كما هو الحال اليوم ، ولم يكن للملاحدة بين ظهرانى المسلمين تيار علمى ينتمون إليه ويكتسبون منه تأييدا كما يكسب التأييد اليوم تلامذة الفكر اللبرالى العلمانى من نظرائهم فى العالم القوى ، وكما يكسب تلامذة الإلحاد الماركسى من أصحابهم .

العلمانية والإلحاد اليوم مذهب له سوقه العالمية الرائجة . وله سنده السياسى الخارجى ، وله وجوده المنظم فى بلاد المسلمين ، وله تغلغل خطير فى كليات التعليم ومدارسه . تقليد الأسماء اللامعة ، وتبنى الثقافة العلمانية المتولدة تاريخيا من قتال العقل السليم للخرافية النصرانية كانا ولا يزالان المدخل الذى سلكه المضللون المعاصرون حتى انضموا إلى « جملة الشياطين الأشرار » . لكنهم بعد الدخول تمكنوا فى الأرض ، وضربوا بالجذور ، وكونوا الخلايا الحية النشيطة . فلا هم « شرذمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة » كما كان أولئك ، ولا يفيد فى إعادة توجيه آرائهم المعكوسة مجرد الاستدلال البرهانى على غرار ما ظن صاحب « التهافت » حين ألف كتابه : « ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر تقليدا يدل على حسن رأيه ، ويشعر بفطنته وذكائه » .



الردة والزندقة

التجمل بالكفر تقليداً ، أو إظهار الكفر إقتناعاً يطلق عليه بلسان الشرع اسم « ردة ». أما حين يصبح الإلحاد فلسفة ودعوة مفتوحة ، ونشاطا منظما فتلك الزندقة . ولكل من الردة والزندقة أحكام معروفة . وإننا لنأمل أن « يكف عن غلوائهم » هؤلاء وأولئك ويدخلوا إلى الحوار قبل أن تصبح الأحكام الشرعية آخر الدواء . فالدولة الإسلامية قائمة إن شاء الله فى دار الإسلام . هذا ما أصبح يتوقعه الخاص والعام ، وإن استباق بعض العلمانيين إلى رفع شعارات الإسلام بين يدى الاحتمالات التاريخية التى يجيدون قراءتها فى الأفق السياسى لدليل على أن الغباوة تتجزأ . ونربأ بأصحاب العقول العلمانية أن يختاروا أسلوب النفاق كما فعل جماعة « مجاهدى خلق » فى إيران . فكما أخفقوا هنالك فهم مخفقون أنى ظهروا إن شاء الله .

خليق بهم أن يبحثوا عن حوار يطلبون من خلاله معرفة الحق ، وقد يجدون التقصير من جانب جند الله قليلى الخبرة بالمذاهب الفلسفية والمناهج التاريخية ، فلا يمنعهم ذلك من التجرد لحظة لمراجعة ما معهم من زاد فلسفى ونقد موقفهم الذى سيجدون عامل « التجمل بالكفر » يشكل عمدة من عمده . إنهم يحبون النقد الذاتى كما يزعمون ويلهجون به ، فيهون عليهم نقد حاضرهم إن تجردوا من الحزبيات ليتابعوا التوالد التاريخى للزندقة المعاصرة .

كان الإلحاد المفلسف فى القرن الثامن عشر الميلادى بأوربا ، فلاسفة فرنسا يقودون الحركة، إلحادا سياسيا فى جوهرة . كان « الفيلسوف » فولتر والموسوعى ديدرو وأصحابه يناضلون ضد الكنيسة التى تُسْنِد الاستبداد الملكى وتؤيد مطالبته ودعواه فى « الحق الإلهى » فى الحكم . ناضلوا ضد الكنيسة وضد الدين ، وهم لا يعرفون دينا غير دين الكنيسة ، دفاعا عن الحرية ومدافعة للطغيان : يقول البارون دولباخ فى كتابه « النصرانية من غير ستار » ما نصه : « كل ما ذكرناه حتى الآن يثبت بأجلى صورة أن الدين

النصـرانى معاد للسـياسة الـسليمة ولسـعادة الأمم » . والدين عنده إنما هو اختراع ابتكره الطغاة لتـبرير طغـيانهم وتركيـزه يقول : « الدين هو فن إسكار الناس بالـحماسـة لمنعهم من الاهتمام بالمصائب التى ينزلها بهم أولئك الذين يحكمونهم » (17) .

عبارة ماركس « أفـيون الشـعوب » تلـخص فكر الـقرن الذى قـبله . يقـول ميليه : « الجـهل والخوف ، هذان هما محورا كل دين [..] . لقد كان هدف المشرعين الأوائل أن يسيـطروا على الشعـوب فكان أيسر سـبلهم إلى ذلك أن يخيـفوهـم وأن يمنعـوهـم من إعمـال العقل [..] . وكلما ازداد المرء إمعـانا فى دراسة النواميس والمبـادئ الدينية يزداد قناعة بأن هدفها الوحيـد مصلحة الطغاة والرهبان » (18) . هذا القِران بين الحكام ورجـال الدين ، بين كهنة الكـنيسة وطغاة القـياصرة هو مـا سميناه فى أول هذا الفـصل « بالوصال الأنكد » الذى أدى إلى « الفصام النكد » بين الدولة والدين .

الماركسيون يعـتبرون هذا الفصام هو الجواب الوحيد لذلك الوصـال ، ويعتبرون هذا الإلحاد السـياسى الفلسـفى تقـدميـة فائقـة . يقـول من كـان يُدعى روجى كارودى قبـل إسـلامه ، يوم كان فى عز ماركسيتـه قبل أكثر من عشرين سنة : « وقد لعب الإلحاد دورا سـياسيا رفيع التقدمـية فى تحطيم العلاقات الإقطاعيـة ونظام الملكية المطلقة . وذلك بكشفه استغلال النظام القديم للدين اسـتغلالا سيايا واجتماعيا . وفى هذا سر عظمة الإيديولوجية العتـيدة . أما قصـورها فى نظر الخبيـر الماركسى فهـو فى أنها لـم تر فى الدين إلا اختـراعا معتسفا دون أن تتساءل ما هى الحاجات الإنسانية التى جاء هذا الاختراع تلبية لها ، وماهى القيم الإنسانية التى أبدعت على هذه الصورة الدينية . » (19) .

كان كارودى يوم كتب كـتابه ماركسيا نصرانيـا معاً ، متمزقا بـين غضبه للحق الذى يجـعله يصفق لإسـقاط الطـغيـان وبين تعطشه الروحى الـذى كان يجـد فى النصرانيـة له منتجعا . هذا التهمم الفطرى الذى يجرد الإنسان الجـاد فى الحياة من الاعتبارات القشرية

---

(17) نقلا عن كـتاب « ماركسـية القرن العـشرين » ، ص : 143 . كتبه رجـاء كارودى قبل إسلامه ، دار الآداب ، بيروت .

(18) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(19) المصدر السابق ، ص : 144 .

ليطلب الحق بحركة من أعماقة هو ما نأمل أن يستيقظ فى نفوس من نحاورهم فى هذا الكتاب من موقع شعورنا بأهمية ما يمثلونه من كسب ثمين لأمتهم إن صبروا على الطلب وصدقوا فيه كما صدق كارودى. نرجو.

إن نقد « الوصال الأنكد » بين علماء القصور والطغاة المستبدين فى تاريخنا الماضى والحاضر من آكد واجبات كل مخلص لدينه ، فقيه فيه ، لا ننتقد ذلك القران الكئيب ابتغاء مرضاة فيلسوف تائه ، أو متحزب نريد استمالته ، لكننا نفعل إرضاء للحق ، وتحريرا لذهنية المسلمين من ثقل كان يعوق عن التفكير ، ولطاقتهم من قيد كان يمنع من الفاعلية التاريخية لإرجاع الحق إلى نصابه ، فإن كنا نبهنا الفيلسوف أو المتحزب ، فتلك وظيفة ضمنية من وظائف الدعوة. والله المستعان.

★ ★ ★

الإلحاد العلمي

هم يقولون عكس ما نقول : فتحرير الإنسان عندهم لا يصح إلا عبر تحريره من الدين ، والثقل الذى يعوق عن التفكير هو الدين ، والقيد الذى يمسك طاقات المجتمع ويمنعها من الانطلاق والإنتاج هوالدين ، فإزالة الدين من طريق الإنسانية وتنحيته والقضاء عليه ضرورة سياسية علمية .

ورث القرن التاسع عشر فى أوربا الإلحاد من « فلاسفة » القرن الثامن عشر ، لكنهم نوعوا الحيثيات التى من أجلها حاربوا الدين . فبينما كان الداعى إلى الإلحاد عند أمثال فولتير وديدرو سياسيا قبل كل اعتبار ، وكان عندئذ يسمى فيلسوفا كل مثقف يهتم بالسياسة والتحرر ، نجد فى القرن التالى فلاسفة يبنون الإلحاد على أسس فكرية بعد أن تقلص نفوذ الكنيسة واضمحل تأثير الإكليروس ، يعتبرون الدين تفسيرا للكون والإنسان سابقا للعلم ، بدائيا . وكانوا ينظرون فى طقوس الكنيسة وجوهر عقيدتها لا فى وظيفتها السياسية . فيجدون فى تلك العقيدة والطقوس ما يعطى تهمتهم للدين عامة معقوليته . فمن خلال عقيدة التثليث المعقدة المتحدية لكل عقلانية ، ومن خلال الخمر التى تستحيل دما للمخلص ، ومن خلال الخبز الذى يصبح بعد قراءة الطلاسم جسدا للمخلص ، يعممون حكمهم على كل دين .

وقالت الفلسفة فى القرن الفائت كلمتها فى الدين ، فرسخت ، وأصبحت مسلَّمة عند ملاحدة هذا القرن وزنادقته من بنى جلدتنا ، لا مكان عندهم للتأنى وفرز الحق من الباطل ، لا مكان لعرض العقيدة الإسلامية ومقارنتها بعقائد الكهنوت النصرانى . إنهم سحبوا على الإسلام حكم سلفهم على النصرانية وعلى كل دين . ثم إنك إن جئتهم من ناحية العقيدة والجوهر فلن تجد استعدادا للحوار ، لأن الإسلام الرسمى يُوظف الإسلام فى تخدير الأمة ، والبرهان العملى السياسى الذى يتمكنون من التقاطه يومى ماثل أمام أعينهم يثبت وجود هذا التخدير ، وهذا يغنى عن كل نقاش فى المبادئ المجردة . يكفى يوم واحد من إساءة أمثال « المارشال ـ الإمام » النميرى للإسلام باسم الإسلام لتزويدهم بالأدلة الكافية لإسكاتك أنت المتبرئ من الدجاجلة ، المكبَّلُ بما جنت وتجنى أيدى بعض المعممين

قرناء النكاد وعاظ السلاطين .

سقط نظام النميرى السيئ الذكر منذ شهر عند هذه الكتابة . سقط نظامه والإخوان المسلمون الذين سايروه فترة فى السجون . أيكفى خلافهم له آخر الأمر ليثبت لكل متهم للدين بصفة عامة ومبدئية وسياسية وفلسفية أن اقترابهم منه إنما كان تهيؤاً لخنقه كما صرح هو بنفسه عندما أودعهم السجن ؟ كيف وأعداء الإسلام لا يتركون شاذة ولا فادة من حركاتنا وسكناتنا وإصاباتنا وأخطائنا إلا كيفوها ليعززوا هجمتهم على الدين ! ولا يعنيهم فى شىء أى دين هو ، ولا أصله وجوهره .

صنَّف أوغست كونت الفيلسوف الفرنسى الوضعى أوضاع المجتمع البشرى الثلاثة المتعاقبة كما يلى : الفترة اللاهوتية ثم الفترة الميتافيزيقية ثم الفترة الوضعية . فى الفترة الأولى كان البشر يسعون إلى تفسير الكون والإنسان بتقدير غاية للوجود تقديرا نشأ عنه الاعتقاد فى الآلهة اعتقادا عفوياً . ثم فى الفترة الثانية بحث البشر عن هذه الغاية بالتفكير الفلسفى . وفى المرحلة الثالثة تحرر الإنسان من اللاهوت العفوى ومن الميتافيزيقا الفلسفية وحكَّم العقل العلمى الوضعى . فلا مكان للدين فى عالم العقلية العلمية التى لا تؤمن إلا بما ترى وتبلغه الحواس ، ولا تهتم إلا بالعلاقات بين الأشياء وتعريفها وتحديد وظائفها الثابتة بالتجربة.

★ ★ ★

الدين ... عاهة وعيب

في مسيرة نقد الدين ، أي في مسيرة العلمانية والإلحاد والزندقة ، بدأت المناوشات عاطفية غضبا على سلوك الكنيسة وقادتها ، ثم استفحل الغضب وتسيس ، فرفض القرن الثامن عشر ما سماه ماركس من بعد « أفيون الشعوب » ، ثم تعلم النقد في القرن التاسع عشر فصنف الدين مع المخلفات البدائية التي تجاوزها البشر .

مع ماركس ظهر الإلحاد العصري المتطور ، الإلحاد الثوري ، كان من قبله من الفلاسفة السياسيون والعلميون بالإضافة إلى « المتزينين بالكفر » تقليدا . كانوا يرفضون الدين بوصفه عائقا عن تحرر الإنسان أو بوصفه مرحلة متجاوزة . وتلك هي الطريقة السالكة إلى الوضعية المادية السائدة في هذا العصر . أما ماركس فيتعمق في فلسفة الدين ليكشف عن جذور الحاجة المرضية في زعمه التي تدفع الإنسان للتدين . إنه لا يكتفي برفض الدين الذي ليس إلا ظاهرة ، بل يريد أن يؤكد حرية الإنسان في إبداع نفسه بنفسه ، وفي هذا يقترب من الإلحاد الوجودي ، وأن يؤكد إيجابية الإلحاد باعتباره خطوة نحو الاستقلال ونحو التخلي عن العاهة النفسية التي تتركب عليها ظاهرة الدين .

يحتفظ ماركس « بمكتسبات » النقد السابق : فالدين خديعة اصطنعها المستبدون للسيطرة على الشعوب ، وهو وهم تولد عن الجهل وبدائية التفكير . ويضيف ماركس وشريكه إنجلس أن الدين انعكاس لشقاء الإنسان واحتجاج على هذا الشقاء .

والتحرير الإنساني الشامل عند ماركس إنما يتم بالقضاء على الطبقية . ففي ذلك المجتمع اللاطبقي الذي تبشر به الماركسية ينحل التناقض بين « الوجود الفردي الحسي للإنسان وبين وجوده النوعي » ، بمعنى أن الإنسان في ذلك المجتمع يتحرر من وجوده الواقعي المستلب ليصبح شخصاً واعياً بانتمائه للنوع البشري متمتعا بكل ما حققته البشرية ، مشاركا في الإبداع ، متطلعا إلى ما لا نهاية له من القدرة على الإبداع . وعندئذ يختفي الدين باختفاء الحاجة إليه . ويصبح غير ذي موضوع بعد اضمحلال « القاع الإنساني » ، أي العاهة التي تدفع الإنسان في المجتمعات الطبقية للتدين .

يقول مـاركس إن الإنسان الذى يعيـش فى مجتمع يسوده الاقتـصاد البضـاعى يبقى معـزولا مستلبـا لا تتاح له الفرصـة ليشارك فـى حياة النوع البـشرى ، لغيـاب الشفافيـة فى العلاقات ، ولتعرض البضاعة والتقويم البـضاعى كحاجز يمنع الأفراد من الاستغناء والتمتع بالمكتسبات التاريخية للإنسـانية . فـأمام هذا الوضع المَرضَى تنعكس فى « قـاع الإنسان » العاهة الإجتماعية على شكل تدين ذاتى هو فى نفس الوقت تمرد على الأوضاع .

ولا يتردد مـاركس وإنجلس والماركسيون فى الاعتـراف أن الدين فى فتـرة ما ، وفى ظروف تـاريخية ما ، يكون تقـدميا . لذلك لا تجد صعوبة لدَى « المتـزينين بالكفر » من بنى جلدتنا ليعترفوا بطيب خاطر أن الإسلام كان فى وقـته وثبة جبارة ، ثورة تارخية ، ومجدا تراثيا . كل ذلك ليزدادوا فى أنفـسهم تيقنا أن المنظومة الإيديولوجية التى يـدينون به عقيدة راسـخة كـشـفت قاع الأمـر كله ، ومنبت العـاهة ، ومـولدهافى وجـود الداء الكلى داء الطبـقيـة . على أن المتـحزبيـن اليسـاريين العـاديين لا يدخلون فى نقـاش الإنسان الفـردى والـذاتى والـنوعى كما يـفسر ذلك ماركـس . يكتـفون بإلحـاد مبسط بسـيط تجمله عبارة « أفيون الشعوب » .

إن الكنيسة الماركسية مضطربة العـقيدة فى شأن الإلحاد . كبـراؤها لم يتبعوا ماركس فـى تحليله القاعى . فهذا إنجلس يرد بصـفة غير مـباشرة على مـقالة ماركس التى تفـيد بأن المسيحية الأوَلى لم تكن ثورة للعـبيد لأنها ظلت دينا للعبيد . يقـول إنجـلس بعـد أ ن هاجم « وجهة النظر ذات العقـلانية السطحية » التى تعتبر أن « كل الخرافـات فى سخافتنا سواء » ما يلى : « المسيحية مرحلة جديدة حـقا من مراحل التطور الدينى ، مدعوة لأن تصبح أحد العناصر الأكثر ثورية فى تاريخ الفكر البشرى » (20) .

ويتناقض إنجلس مع شريكه فى تحليل « الـقاع الإنسانى » وميلاد الدين من الـتناقضات الطبقية والاقتصادية فيقول : « سيكون جعـجعة فارغة أن نبحث عن أسباب اقتصادية لهذه التطورات الدينية الأولى » (21) . كلنا نعلم أن ما تطحنه رحى الفلسـفات حول الدين إنما هو جعجعة فارغة ، سواء كـانت فلسفات سياسية أو وضعية أو ثورية . ما تطحنه حول دين

(20) المصدر السابق ، ص : 157 .

(21) المصدر السابق ، ص : 162 .

النصرانيـة المحرف الخرافى ثم تـعمم . لكن ليـس من المتوقع أن تجد مـثل هذا التقـويم عند إنجلس الخل والوفى و الشريك الند . ثغرة من الثغرات التى لا تحصى فى ذلك الصرح .

لا ولا من المتوقع أن تجد عند الـشريك الثالث ، قل التلميذ النابغ ، لنـين فكرة مناقضة لفكرة الإلحاد القـاعى الماركسى . مـا كان يراه الأستـاذ عاهة وعيـبا وظاهرة تعـفنية، يراه التلميذ النابغ المنفذ للنظريات الحالمة عنصر حـياة وزهرة يانعة من زهرات المعرفة البشرية ! كتب كارودى ما يلى : « إننا نقول ، كما فعل لينين ، إن النظرة الدينية ليست بلا سند من المعرفـة ذاتها ، وإن الدين ـ كمـا قال لينين فى « الدفاتر الفـلسفية » : زهرة غـير مثـمرة ، ولكنه زهرة نبتت على الشجرة الحية للمعرفة الإنسانية الحية » (22) .

★ ★ ★

(22) المصدر السابق ، ص : 165 .

النصارى العرب

ترددتُ عند كتابة هذا العنوان بين صيغة التعريف كما كتبت وبين صيغة : « نصارى العرب » : الصيغة الأولى تثبت لهؤلاء النصارى ذاتية وأصالة ، والثانية تأتى بهم تبعا إضافيا . من يعتبر فاعلية هذه القلة القليلة فى جسم الأمة وحيويتها وأثرها البالغ لا يكتب الصيغة الإضافية ، وربما كان الأليق أن نتحدث عن « عرب النصارى » إشارة إلى مكان النصارى ، يقودون كثيرا من العرب بالزمام ، ثقافيا وحزبيا وإعلاميا .

يمثل النصارى العرب أقل من خمسة فى المائة بالنسبة للعرب ، أكثر قليلا من خمسة فى الألف للأمة الإسلامية . ورغم ضآلتهم العددية فإن لهم الأثر البالغ فى تكوين العرب المعاصرين الفكرى ، ومكان القيادة فى التوجه القومى العربى بالأمس ، وفى التمزق الطائفى الذى نبعت غائلته فى الحرب الأهلية اللبنانية ، وفى التآمر المارونى مع دولة اليهود.

يمتد تاريخ النصارى العرب فى تاريخ الإسلام إلى نصارى نجران الذين وفدوا على رسول اللّه ﷺ ، فأنزلهم بمسجده ، وأكرم مثواهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وجادلهم بالتى هى أحسن لما أبوا الاستجابة ، ودعاهم إلى المباهلة آخر الأمر فأبوا . ثم تصالحوا مع رسول اللّه ﷺ على الجزية ، وعاشوا كما عاش كل أهل الذمة فى كنف الدولة الإسلامية ، بل فى كنف المجتمع الإسلامى ، قاسموه الحلو والمر .

لما شاخت الدولة العثمانية ، وآن لأوربا التى لفظت دين النصرانية دون أن تلفظ أحقاد الصليبية أوان الكرّة ، تصدت أوربا « للرجل المريض » لتجهز عليه وتنهى أربعة قرون كان أثناءها العثمانيون يمثلون فى عين أوربا النصرانية الهول الإسلامى والخطر المحدق منذ فتحهم القسطنطينية سنة 1453 ميلادية .

كانت المواجهة بين أوربا والمسلمين بقيادة الأتراك امتدادا مباشرا للمواجهة الدائمة ، ومن أبرز فتراتها الحروب الصليبية المسماة هكذا . تحولت هذه الحرب بالسلاح الحديدى إلى حرب شاملة للإجهاز على الإمبراطورية العسكرية العثمانية ، شوكة الإسلام لقرون طويلة ، فكان النصارى العرب منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى بعض فيالق الجيش

النصرانى . وتقلب النصارى العرب فى « أدوار » على مسرح تاريخنا المعاصر . فكانوا السابقين إلى تثقيف العرب بالثقافة الغربية التى كانت ولا تزال تربطهم بها روابط القربى الحميمة ، وكانوا « موقظى » العرب ، و« خدام » اللغة العربية ، والمبشرين باللبرالية ، ورواد مدارس التنصير ، ومؤسسى الحركة القومية العربية . وقبل ذلك كانوا أنصار الثورة العربية على الأتراك ، وكانوا حَملة الفكر الماركسى الأولين ، هم إليوم على رأس الدعوة المارونية الطائفية .

حول الأرض المقدسة ، حول فلسطين المحتلة كيانات عربية هزيلة ، قومية ووراثية عشائرية ، لكن اليهود لا يطمئنون ، وهم دولة طائفية ، إلا إن قامت حول فلسطين دويلات طائفية موازية متحالفة خادمة ممتدة كالسرطان فى جسم العرب والمسلمين .

كان خروج الصليبيين من أرض المسلمين سنة 1270 . فلما دخل الفرنسيون إلى دمشق بعد الحرب العالمية الأولى ، وقف القائد الفرنسى على قبر صلاح الدين الأيوبى رحمه اللّه وقال : « ها نحن عدنا يا صلاح الدين ! » أو لم تمضي على عهد الملك الصالح سبعة قرون ونيف ألم تنبذوا أثناء النصرانية . ألم تدفنوا الذكريات الصليبية ومرارة تلك الهزائم ؟

كلا ! فالعظمة العسكرية للإمبراطورية التركية شوكة الإسلام تنادى ضمائر أوربا العسكرية بالثأر منها . والقدس الأرض والرمز قطب المطالبة ، هدف الملاحقة الحثيثة . وهاهم النصارى العرب يتخلون عن قضية العروبة بعد أن ساهموا فى تمزيق المسلمين ، وهاهم يتحالفون مع اليهود ، ويعود النصر إلى معسكر أهل الكتاب متسجدا فى تركيز دولة اليهود .

إن النصارى العرب ، من موارنة فى لبنان وسوريا ، ومن أرثوذكس ، ومن أقباط ، ومن بروتستانت وكاثوليك أعطوا ثقتهم يوما للعرب المسلمين . وهم اليوم ، بعد أن أصبحت لهم جاليات غنية فى مهاجر الأمريكتين وفى سائر البقاع ، يتخلون نهائيا عن ستار الإيديولوجيا العربية الذى أخفوا وراءه زمانا طموحهم الطائفى . تململ فى مصر ، وجيش مقاتل فى لبنان ، وخطوط مطالبة نصرانية عربية تنتسج شيئا فشيئا مع المخطط اليهودى الأمريكى .

كان النصارى العرب ولا يزالون أقلية ضئيلة العدد ، عاشوا قرونا جسما غريبا كل الغربة فى المجتمع المسلم . ووقع عليهم فى فترات ، منها ولا شك فترة الحُكم العثمانى ، ضيم وظلم كما وقع على العرب المسلمين . وفى عهود انحطاط المسلمين الأخيرة شعر النصارى العرب أنهم أجانب فى وسطهم بكل معنى الكلمة . فكان السبق إلى التعلم فى المدن الكبرى والهجرة إلى أوربا وأمريكا مسلكهم المبكر للخروج من الربقة التى ظل إخوانهم العرب المسلمون يعانون منها . ربقة اقتصادية وسياسية واجتماعية . أقلية زاد من شعورها أنها مهضومة الحقوق انتماء الأغلبية فى المجتمع إلى دين الحاكم التركى ، ففضلت العيش فى بلاد الغربة مُقتَلَعة الجذور على العيش فى مهانة . وكان هذا خاصة نصيب نصارى لا ينتمون لعشائر قوية ، ولا تحميهم أحلاف مثل الأحلاف القديمة والمعاصرة بين طوائف الجبل اللبنانى مثلا .

لم يدخل النصارى العرب فى ولاء لأية دولة من الدول التى تعاقبت على بلاد المسلمين ، رغم ما كان لأفراد منهم من الوجاهة الرسمية والحظوة الاقتصادية والسياسية لدى البلاطات . كان منهم أثناء الحروب الصليبية جواسيس ومساعدون للعدو ، وهذا أمر طبيعى ومنتظر . كان ولاؤهم الدائم للأسرة والقرية والطائفة . ولعل بعض حذاقهم وأذكيائهم المغربين المتشبعين بالفكر اللبرالى الغربى أو الاشتراكى الماركسى ظنوا ساعة أن الفكرة القومية بشير الخلاص ، وأن الدولة القومية سفينة الخلاص .

عاشوا زمانا فى مجتمع مغلق يشكلون شريحة اجتماعية منفصلة ، لهم ذهنيتهم الخاصة ، وعاداتهم ، وثقافتهم المحلية المرتبطة بكنائسهم ، ومواقفهم السياسية ، وحصونهم فى الجبل إذا كانوا موارنة ، أو « انسجامهم » إذا كانوا أقباطا فى القاهرة والصعيد .

فلما اتصلوا أواسط القرن الماضى بالفكر الغربى بواسطة مدارس التنصير توسموا ملامح مستقبل يضمن لهم الحرية ويخرجهم من مرتبة التبعية والغربة . جاءهم الفكر اللبرالى بمفهوم الحرية فتلقفوه بديلا مرجوا لمفهوم الذمية ، جاءهم بوعد النجاح الاقتصادى المدنى الذى يكافئ الجهد فأحبوه عوضا عن الحظ المحتوم لجهود محلية عقيمة ، جاءهم بصورة متكاملة لحضارة متقدمة مخالفة ومنافسة لحضارة المسلمين الرائحة للأفول ، فكان الإغراء عليهم أقوى منه على أبناء الأغلبية المسلمين الذين كان لهم فى

مجتمعهم المكان الأرواح .

حمل إليهم الفكر اللبرالى ، والماركسى من بعده ، بذور التحرر من الدين ، ومن العقائد الغيبية ، وبذور التمرد العقلانى على كل موروث . ونبغ من النصارى العرب ، من رهبانهم ومن عامتهم ، صحافيون وناشرون وبحاثون عملوا على بث تلك الأفكار والترويج لها . فكانوا الرعيل الأول فى ركب العلمانية .

اصطدموا أول الأمر بالفكر المسلم المحافظ المتخلف عنهم فى الاطلاع على أفكار العصر . فكانت مقاومة شديدة ، ما لبثت أن أسفرت عن فجوات وثغرات دخل منها الفكر العلمانى شامخ الرأس يوم أقنع النصارى العرب بعض المسلمين العرب بوجاهة ما يدعون إليه ، وتقدميته ، وتحضره ، وتفوقه .

★ ★ ★

الدين للآخرة فقط!

لا تكتمل الصورة عن العلمانية وحملتها الأولين النصارى العرب دون عرض مواز لحركة الإصلاح الإسلامية والنهضة الإسلامية على يد جمال الدين الأفغانى وتلامذته. ولن يقودنا ذلك العرض بعيداً عن مقاصد هذا الكتاب، وهو كتاب منهاج لا كتاب تاريخ.

نكتفى بالاستدلال على أهمية تأثير النصارى العرب فى عهد مبكر من عهود « النهضة » « والإصلاح » ، ذلك التأثير الذى بلغ أوجه ، فيما نظن ، فى الأربعينيات من القرن العشرين بتاريخ النصارى عندما أسس النصرانى ميشيل عفلق حزب البعث العربى .

كتب عبد الرحمن الكواكبى (1854 - 1902) وهو من أبرز ممثلى الفكر النهضوى فى كتابه طبائع الاستبداد يقول : « يا قوم - وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين - أدعوكم إلى تناسى الأحقاد والإساآت ، وما جناه الآباء والأجداد (...) . يا هؤلاء نحن ندبر شؤوننا ، نتفاهم بالفصحى ، ونتراحم بالإخاء ، ونتواسى فى الضراء ، ونتساوى فى السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الآخرة فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ، ألا وهى : فلتحى الأمه ! فليحيى الوطن ! فلنحى طلقاء أعزاء ! أدعوكم وأخص منكم النجباء فلنصبر لنتصبر فيما إليه المصير . » (23)

كيف ذهب يسبح فى بيداء الوهم واحد من أكثر الرجال وعيا فى ذلك الوقت ! كان الكواكبى رحمه الله شعلة من الثورة على الاستبداد ، كان من نجباء الاتجاه النهضوى، يشبه جمال الدين الأفغانى فى انقطاعه عن الوظيف وعن كل شؤون الحياة ليتفرغ مثله للثورة ويحترفها ويُفنى فى ظلالها عمره . وتمتاز اليقظة النهضوية « الأفغانية » عن اليقظة النصرانية أن الأولى تسعى للتحرر من النير العثمانى بالوسائل الثورية بينما تتوسل الثانية إلى نفس الهدف بالتسلل الثقافى لنسف البناء من أساسه . ومع ذلك يعد كتابا الكواكبى طبائع الاستبداد وأم القرى إنتاجين ثقافيين من أهم ماكتب فى ذلك العهد ، ينتقد فى الأول الدولة العثمانية ، وفى الثانى ينتقد المجتمع المسلم ويبرز أمراضه . ولعل نقده

(23) نقلا عن مجلة « الفكر العربى » ص : 482 ، العدد 22 ، سبتمبر 1981 .

المتبصر ذاك لايزال فى كثير من نواحيه أكثر جرأة وأوضح منهاجا مما يكتب فى هذه السنين الأخيرة حيث يغلب على كتابات العرب والمسلمين إما الشتم الانفعالى أو الرثاء للنفس والنفخ فى الأمجاد بما يغطى الحقائق، فيستحيل الفهم ويختلط العمل.

الخبط الكامل أتى هذا العمل من استناد صاحبه فى نقده إلى المفاهيم اللبرالية العلمانية التى طفت على فكره، فوصف المرض الاستبدادى وحالة الأمة السيئة ولم يجد من دواء يقترحه، وهو المسلم سليل بيت الشرف والعلم، سوى الوصفة العلمانية: فصل الدين عن الدنيا.

ولم يتفرد الكواكبى بهذا المذهب من بين دعاة النهضة والإصلاح، فالزعيم الثانى فى تلك المدرسة نفسه، الشيخ محمد عبده رحمه الله، يدعو نفس الدعوة، بنفس الوضوح والقطع. الفكرة إذن كانت رائجة فى ذلك الوقت، وما يفيدنا الكواكبى إلا بتوجهه إلى فئة «الناطقين بالضاد من غير المسلمين» ليدلنا على أهم المخاطبين الذين تقدم لهم هذه التنازلات.

يقول الشيخ محمد عبده عفا الله عنا وعنه بنفس القطع والوضوح: «لو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم فى إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشفه الآخرون فى اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم» (24).

هل كتب الشيخ هذه المقالة قبل الثورة العرابية التى شارك فيها؟ هل هو برنامج مقترح لهذه الثورة التى كانت قومية مسلمة علمانية لا تتميز فيها الاتجاهات وسط الغمرة الوطنية العاطفية؟ أم كتب بعد رجوعه من المنفى وتفرغه لإصلاح القضاء والأزهر والأوقاف؟ هل يعنى بما يقرره الأولون «علوم الأوائل» أى الفلسفة؟ وأية فلسفة؟

كان النهضويون الإصلاحيون ينتقدون الجمود العقلى والتقليد، ويشيدون بالعقل الاعتزالى الحر، لكنهم لم يشعروا، وهم معذورون، أن انبهارهم بالحضارة الغربية

---

(24) نقلا عن كتاب د. عمارة: «تحديات لها تاريخ»، ص: 202، ط. 1982، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

وحماسهم الوطنى العارم دفعاهم إلى نقيض ما كانوا ينتقدونه ، فأوغلوا فى السطحية العقلانية ، وسقطوا فى شراك الفكر العلمانى ، حتى بدر من أساطينهم ما نقرأ صراحة بَرَاحَةً من أن الدين للآخرة فقط ، وندبر ما سوى ذلك أو نتفاهم على تبنى « ما قرر الأولون وما اكتشفه الآخرون » .

إن فكر الإصلاحيين النهضويين ، ما هو إلا توالد لنفحة الأفغانى رحمه الله موقظ الشرق ، والرجل كان شهابا ثاقبا ذكاء ، وغيرة ، وثورة على الاستعمار . فكل الوسائل كانت سائغة عنده للتخلص من الاستعمار الإنجليزى ، لذلك انخرط هو وتلامذته ، ومنهم محمد عبده ، فى المحافل الماسونية ، وجاملوا إلى حد الإخلال بالعقيدة التيار العقلانى . دليل ذلك تأويلات محمد عبده عفا الله عنه للغيب . ثم ها هى ذى نصوصهم تدعو للعلمانية بما لم يزد عليه الشيخ على عبد الرازق من الجيل التالى إلا بصياغة « أصول الحكم فى الإسلام » صياغة مفلسفة .

إن هؤلاء الإصلاحيين النهضويين ، رغم أخطائهم الفكرية والسياسية والعقدية ، هم مؤسسو المدرسة الإسلامية الحديثة ، عاشوا فترة اليقظة الأولى فانبهروا مع الناس وتأثروا بمعاصريهم وأثروا ، وغالبوا التيار التغريبى العلمانى اللبرالى وانغلبوا . لكن أفكارهم هى أساس بنى عليه رجال أثبتُ خطىً على منهاج السنة مثل الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب رحمهما الله . ومن مدرستهما تخرج الإمام حسن البنا رحمه الله . وكل جيل أخذ ممن قبله عناصر وظفها فى الفهم المستقبل .

★ ★ ★

تمـوجـات وتـيـارات

تموّج تفكير المثقفين العرب ، تحت قيادة النصارى العلمانيين ، مع الأحداث السياسية والرغائب القومية والانتفاضات الموازية لمطالبات « جمعية الاتحاد والترقى » التركية القومية والمتساندة معها . واستعرت نار الحرب العالمية الأولى فوجد القوميون العرب المنضوون تحت لواء الشعارات التى رفعها الكواكبى « ليحيى الوطن ، لتحيى الأمة ! » وعود الإنجليز والفرنسيين تمنيهم بالغد المشرق . وفى خضم الثورة العربية ، وحُمّى الفرحة بانزياح كابوس الاستبداد تقدم الفكر العلمانى خطوات ، وتمكن الخواجات النصارى فى الأرض الثقافية والسياسية . فلما بدت خديعة الإنجليز والفرنسيين بعد أن ألقت الحرب أوزارها وانهارت الإمبراطورية العثمانية ليحل الاستعمار محلها ، اتجه المثقفون العرب إلى النضال السياسى . وفى كنف الأحزاب السياسية بمصر والشام والعراق ترعرع الفكر التغريبى العلمانى اللبرالى وازدهر .

كان من المثقفين جناح متطرف ، رأيه الذى نشره فى الجرائد والكتب ، وبشر به علانية فى وجه الأزهريين والإصلاحيين والسلطة المحايدة ، أن نطرح الشرقية وأفكارها ومخلفاتها ، ونأخذ الحضارة الغربية « بخيرها وشرها ، حلوها ومرها » كما قال واحد من زعماء هذه الطائفة طه حسين فى كتاب مستقبل الثقافة فى مصر . قائد هذا السرب لطفى السيد ، ثم النصرانى القبطى سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمى . وقد طبق المتفرنج طه حسين منهج اللبرالية العقلية فى دراسة الأدب الجاهلى فجاء بما لم تستطعه الأوائل ليطعن فى أصول الوحى نفسه . وتميز إسماعيل مظهر بين العقلانيين ، إذ كان نظره أن يتحرر العقل من كل سلطة خارجية ، يعنى الدين .

وعام الكل فى الخليط الثقافى العصرى يومذاك ، المحلى منه والعالمى ، من داروينية ، وقومية فرعونية أو عربية ، ودستورية ديمقراطية . والصوت الإسلامى يرفعه فى مواجهة الإعلام العلمانى القوى قلة من الكُتاب أمثال الشيخ رشيد رضا ومصطفى صادق الرافعى ، ومحب الدين الخطيب رحمهم الله .

تموج الفكر مع الأحداث والسياسات والموضات الثقافية ، لكن الإشكالية الأساسية بقيت على حالها ، وهى إشكالية الجمع بين الحداثة والتراث ، بين الدين والدنيا ، بين الروح والمادة ، أو التفريق بينهما . كانت الهزيمة النفسية أمام إنجازات الغرب وتألق حضارته ، والهزيمة السياسية أمام الاستعمار ، والباعث الذاتى ، المندس فى الذات ، وهم النصارى العرب المغربون ، كلهن يدفعن فى اتجاه تقليد الغرب وتبنى ثقافتة . وكان النفور الذى يشعر به المثقفون المتخرجون من مدارس التنصير ومن جامعات الغرب تجاه انحطاط مجتمعهم وتزمت الذهنية التقليدية يرغبهم فى التفرنج فى العادات والأخلاق ونمط الحياة . إلى الجانب الآخر كان الأزهريون الملتصقون بالأرض والشعب ، الفقراء أبناء الفلاحين ، وكان العلماء المعممون من أبناء الطبقة الميسورة فى الشام والعراق ، لم يزوروا أوربا ولا ذابوا محبة فيها . فبقوا العنصر الثابت الذى دافع عن الدين من مواقع تتراوح بين التقليد والجمود على الماضى . وهذا كان سواد الأزهريين . لم يتمكنوا وهم فى مواقعهم المنعزلة من الفهم الواعى للعصر وحاجاته ، والغرب وحضارته .

نعيش اليوم بحمد اللّه ارتداد الموجة ، والريح الرخاء تهب فى اتجاه العودة إلى الإسلام . فى تلك العقود من السنين ، كانت الريح العاتية تهب فى اتجاه تقليد المغلوب للغالب . لم يسلم من تيارها أزهريون من أمثال الشيخ على عبد الرازق عفا اللّه عنه والشيخ عبد المتعال الصعيدى عفا اللّه عنه ، ولا حتى بعض أئمة الأزهر كالشيخ محمد شلتوت غفر اللّه له فى بعض فتاويه .

بين مد وجزر تغالب التياران ، وتداخل الفريقان ، وتبودلت التأثيرات . فمن مشايخ نفخت عليهم رياح التغريب والعلمنة مثل الكواكبى ومحمد عبده ومن ذكرنا ، ومن مثقفين زاروا الثقافة الغربية وسكنوها أحقابا ثم رجعوا إلى الإسلام والعروبة ، منهم إسماعيل مظهر زعيم النشوئية يوماً ما ، وحسين هيكل ، والعقاد ، ومنصور فهمى ، وحتى طه حسين فى إسلامياته .

★ ★ ★

الاشتراكية القومية

ما بين الحربين العالميتين انغرزت الاشتراكية الإصلاحية والشيوعية الثورية فى الواقع الدولى على إثر الثورة البلشفية فى روسيا ، ومن أثر الأزمة الاقتصادية الحادة فى الثلاثينات . وارتفعت المطالبات بالعدل فى الدول الأوربية وفى البلاد المستعمرة مع شعارات التحرر الوطنى عقيب الحرب العالمية الثانية فى الوقت الذى كان اليسار الأوربى ، ومنه الأحزاب الشيوعية ، تساند هذه الحركات . كان العالم حديث عهد بالمغامرة النازية التى وضعت على وجه أوربا علامة من علامات الجاهلية المتأصلة . تزايد الشيوعيون فى العالم ، وهم فى أوج الافتخار بالعشرين مليون ضحية التى سقطت من الروس فى الحرب العالمية الثانية ، وأيدوا شعارات التحرر والعدل بين الشعوب ليزرعوا فى معسكر الخصم البرجوازى بذور الثورة بعد أن استولوا على نصيبهم من غنائم الحرب واحتلوا أوربا الشرقية كما خولتهم قسمة معاهدة يالطا .

فى بلاد العرب والمسلمين أخذ الفكر الشيوعى والانتماء القومى يتعززان على حساب الثقافة اللبرالية السابقة ، وأخذت الحركة الإسلامية على يد الإخوان المسلمين فى الشرق العربى والجماعة الإسلامية فى الهند ، ثم باكستان ، تزاحم دعوة وتنظيما .

كلما أعلن الاستقلال السياسى فى بلد من بلاد المسلمين وما سمى بعدئذ بالعالم الثالث اكتشف الوطنيون بعد الاستيلاء على مقاليد الدولة أن ذلك الاستقلال ليس إلا مقدمة لمشاكل عويصة كل منها يطلب حلا عاجلا . ومن أهم هذه المشاكل المشكلة الاجتماعية الداخلية والموقف الدولى من إحدى الكتلتين . فبرزت فى الأفق السياسى كلمة الاشتراكية وفكرة الاشتراكية والمذهب الاشتراكى . وأصبحت الكلمة تعنى فى خيال المجتمع السياسى وعند المثقفين ما كانت تعنيه كلمة « حرية » وكلمة « ديمقراطية » من قبل . وسبقت الكلمة الجديدة والمفهوم الجديد ، الذى تكسوه الدعاية الروسية والفكر الماركسى ألوان المطلب الأسطورى والأمل المجنح ، كل كلمة غيرها وبَزَّتْ .

ربما تكون كلمة « قومية » وهى كانت العماد الإيديولوجى لحركات التحرر ، هى

الشعار الوحيد الذى استطاع أن يصمد إلى جانب الاشتراكية . كل سياسة تتخذها الحكومات المستقلة حديثا كانت تبدو هزيلة متخلفة ما لم تحمل لقب الاشتراكية . ووقع استهلاك كبير للفكرة ، وأضيفت الصفة لكل موصوف يقبلها أو يتنافر معها . ومن جملة الموصفات الإسلام . ويبدأ التلفيق من عبارة « الإسلام الاشتراكى » أو « الاشتراكية الإسلامية » .

شيئا فشيئا أزاحت الاشتراكية القومية الحركة الإسلامية من طريقها فى مصر بعد « ثورة » الضباط الأحرار . وطلع العقيد جمال عبد الناصرفى سماء العرب نجما يتألق بالوعود الكبيرة : بالقومية ، بالوحدة ، ثم بتاج الكل :« الاشتراكية » . الوحدة ، حتى على مستوى العروبة ، لا تقتضى عداء الإسلام لولا أن الضباط الثوار والنخبة المثقفة الإدارية التى التفَّت حولها كانت علمانية فى فكرها وسلوكها وتوجهاتها ، ولولا وجود الخمسة فى المائة من النصارى ، ولهم فى مصر والشام شأن . على مستوى الحكم والتنفيذ، كانت المسألة الاشتراكية « علمية » ، وتأميما ، وحجما منتفخا بعد مؤتمر باندونغ الذى ولدت فيه حركة عدم الانحياز ، واكتسب فيه عبد الناصر هيكل القائد الدولى ، وخصوصا بعد الهجوم الثلاثى من قبل اليهود وحليفتيهم فرنسا وإنجلترا ، وما تلاه من جلاء أراده الأمر يكانيون ونسبه العقيد لنفسه ونظامه ، فاكتملت له بكل ذلك مقومات البطولة التى ركزتها الخطابة المتأججة و« صوت العرب » الحاضر فى أذن كل عربى يتوسم ظهور البطل الملهم .

على مستوى الحكم كان ذلك ، أما على مستوى الخطاب ، فكان الإسلام كلمة مشكورة . ميشيل عفلق ، مُنظِّر القومية الأول ، يدبج مقالات ورسائل فى تمجيد « الإسلام العربى » و « النبى العربى » . وعبد الناصر بطل القومية يصلى الجمعة رسميا ، ويعطى الإسلام كلمة تسامح كلما عنت الفرصة ليمتص التطلعات الإسلامية فى الشعب ، بينما الإخوان المسلمون يُوفدون للمشانق ، ويُسامُون سوء العذاب فى أقبية السجون .

كان التلفيق عملية إيديولوجية ، بمقتضاها تلبس التجربة العربية للاشتراكية ثوبا من الألفاظ الإسلامية . وفى البلاغة العفلقية تتقاطر العواطف القومية الرومانطقية ندى ، وتتصاعد بخورا للأمجاد الإسلامية .

الحل التلفيقي

بعد هزيمة 1967 النكراء أمام اليهود، فقد البطل القومي عبد الناصر بعض شعبيته، وتراجع القوميون العلمانيون قليلا في الحيز الثقافي، وانفتحوا للحوار من مواقفهم المهزومة مع الإسلام. وعلى قدر تجمع الاتجاه الإسلامي في تكتلات لها بال يزداد ميل العلمانيين القوميين إلى الحلول التلفيقية، ينظّرون لها، ويستنبطون لها سوابق، ويتعلقون بعباءة « الشيخ الإمام » محمد عبده رحمه الله وغفر له، وينشرون كلمة الكواكبي رحمه الله وغفر له: « الدين للآخرة فقط » ويحيون ذكرى المعتزلة، ويفخرون بعقلانية « الفلاسفة المسلمين » ويسبقون التفكير الإسلامي إلى منابع التاريخ ليؤصلوا وجهة نظرهم في مقالات موروثة، وأحاديث وآثار مدسوسة في بطون الكتب.

من أصحاب التلفيق دكاترة أزهريون يحبهم العلمانيون ويصفونهم بأنهم « أهل التنوير » مثل الدكتور محمد أحمد خلف الله. ومنهم دكاترة جامعيون ملأوا الدنيا كتبا وأبحاثا موثقة المصادر محبوكة النسيج مثل الدكتور محمد عمارة. إنْ تقدم الإسلام في الميدان خطوة رأيتهم يتقدمون في التنظير التلفيقي خطوات. الثوْرة الإسلامية في إيران أيقظتهم كما أيقظت العالم إلى أن «المخزون النفسي» في الشعوب الإسلامية طاقة حبلى بكل المفاجآت، فتسمع الحلول التلفيقية التوفيقية وهي تتحول نغمة نغمة أناشيد جماهيرية.

الجادون الصرحاء من أهل التلفيق يدافعون عن العلمانية القومية ويكشفون نواياهم الحاضرة والمستقبلة، لا يعطون الإسلام أكثر مما يعطى لضرورة واقعية لا مناص من التعامل معها، لا يعطونه أكثر مما تستحق مخلفات أثرية وعقابيل تاريخية هي من السلبيات التي يحسن أن تدارى حتى تضمحل مع الأيام. أعلى أبصار هؤلاء غشاوة. أم هي « الصرامة الفكرية » و « أمانة » المثقفين؟

يدفع العلمانيون دعوى الإسلاميين أن الإسلام يحتوي على نظام كامل نهائي يحل مشاكل المجتمع البشري في كل زمان ومكان. ويتهمون الإسلاميين بأنهم يريدون التفرد بالحكم والسيطرة على الميدان لأن الفقهاء وحدهم يحتكرون القدرة على الاجتهاد

وتأويل النصوص فما يأمن أن يقيموا دولة التعصب وسفك الدماء ؟

بعبارة أخرى يدافع العلمانيون الأكثر صراحة عن زعامتهم الفكرية وإيديولوجياتهم الشمولية ، قومية أو ماركسية ، كما يدافعون عن مواقع أقدامهم السياسية .

يتقدمون بحججهم من محكمة التاريخ التى تتهمهم بكل ما لحق العرب والمسلمين من هزائم بعد تهمة إسقاط « الخلافة العثمانية » فيوجهون اللوم للإسلام . هجوم على الإسلام لتنسى التهم . كيف يمكن أن يشتمل القرآن وتشتمل السنة الجواب عن كل المشكلات الحيوية لمجتمع عصرى يختلف كل الاختلاف عن المجتمع القبلى الذى شاهد ولادة الإسلام ؟ كيف يمكن تطبيق تلك التشريعات العتيقة التى نزلت زمان حضارة الجمل فى عصر الصواريخ والكواكب الصناعية ؟

حيث تكون إشكالية الإسلاميين : « كيف نفرع من أصولنا أحكاما تحتضن مشكلات العصر ؟ » تكون إشكالية العلمانيين الملفقين : « كيف نغير فهمنا للإسلام فلا نربط به كل نظامنا الدنيوى ؟ » ويزعموث أن الكتاب والسنة ليسا ملزمين فى كل شؤون الحياة وإلا لما كان القياس ، وهو رأى بشرى ، ولما كان الإجماع ، وهو إرادة بشرية ، مصدرين أساسيين للتشريع.

مع هذه المطاعن المبدئية فالملفقون يعترفون بالضرورة السياسية لمصانعة دين الأغلبية وأخذه بالاعتبار . بعبارة أوضح : إنهم يوصون باحتواء الإسلام « المتعصب » « المتطرف » « الأصولى » واقتراح إسلام تقدمى وحدوى اشتراكى قومى تلافيا للضغوط الإسلامية القوية التى يخاف أن ترفع دولة الرجعية والطائفية والبرجوازية الإسلامية الإقطاعية .

هنا يلتقى مشروع « الإسلام الأمريكى » كما كان يقول سيد قطب رحمه الله فى الخمسينات مع مشروع الإسلام التلفيقى . كلاهما يخاف ظهور الدولة الإسلامية ، وكلاهما يلتمس بديلا عن إسلام الكتاب والسنة فى طبخة إيديولوجية ما ، لا تأخذ من الإسلام إلا اسمه لتطرحه على حقائق مذهبية وسياسية تخدم هذه الدولة العظمى ، أو هذه الطبقة المثقفة ، أو هذا التيار الحزبى ، أو هذا المستقبل المنحاز ، أو كل ذلك معا .

يريد الملفقون تفادى الأخطار التى وقعت فيها السياسات المعادية للدين . هما عيبان رئيسيان لخصهما أحد الناصريين البارزين ، الدكتور محمد النويهى ، فى كتابه الذى

يحمل العنوان ـ البرنامج : نحو ثورة فى الفكر الدينى . قال : « أول الخطأين أنهم لم يقدروا تقديرا تاماً مدى سيطرة الدين على عقول المؤمنين به ، وهم كثرة الناس ، وأن هذه الكثرة الغالبة إلى الآن ليست مستعدة للتنازل عن معتقداتها الدينية مهما يقم لها الدليل والبرهان على أن هذا التنازل يكون فى مصلحتها ، مصلحتها الفكرية والمادية معا » . قال: « وثانى الخطأين أنهم لم ينتبهوا إلى أن العيب ربما لا يكون فى الدين نفسه ، بل قد يكون فى إساءة فهمه وإساءة استعماله » . وينتهى الذكى إلى الاستنتاج التالى : « الحملة على الدين نفسه ليست إذن سوى محاولة كيخوتية (25) مبددة للجهود . هذه هى الحقيقة التى ينبغى أن ندركها جميعا مهما يكن رأينا الخاص من صحة الدين أو خطئه » . والعلاج عنده : « فلنوجه جهودنا إلى محاولة أرشد وأنفع : كيف نقنع الناس بألا يتخذوا من الدين حجر عثرة يقيمونه أمام كل رأى جديد . وكيف فى تحقيق هذا الهدف نتجاوز الإصلاح الجزئى المبعثر الذى انحصرت فيه جهودنا حتى الآن [..] . كيف نروج بينهم تلك النظرة العلمانية التى ذكرناها » (26) .

ويعود الكاتب يشرح تلفيقة مستندا إلى « مصلحنا العظيم الإمام محمد عبده وتلامذته ، وأتباعه فى مدرسة المنار » ، منددأً بالخطأالسياسى الذى ارتكبته الثورة الفرنسية والثورة الروسية فى محاربتهما الدين . وعندما ينتهى من اللف والدوران يصرح بلب فكره قائلا : « هذا هو رأينا الذى نصرح به : إن كل ما فى القرآن وما فى السنة ـ دعك من مذاهب الفقهاء ـ من تشريعات لا تتناول العقيدة وما يتعلق بها من شعائر العبادة ، بل تتناول أمور الدنيا ومعاملاتها وتنظيمها وعلاقاتها ، كل هذه التشريعات جميعا بلا استثناء واحد ليست الآن ملزمة لنا فى كل الأحوال ، حتى ما كان منها زمان الرسول [نقول : ﷺ] من بابى الفرض والتحريم ، لم يعد الآن بالضرورة كذلك ، بل لنا الحق فى أن ننقله إلى بابى الندب والكراهة ، إن لم ننقله إلى باب المباح » (27) .

لا تجد فى كتب الدكتور عمارة مثل هذه الصراحة . لكن تجد نفس التمجيد

(25) نسبة إلي (دون اكيخوت) .

(26) « نحو ثورة في الفكر الدينى » ، ص : 98 ـ 99 ، ط . الأولي ، دار الآداب ، بيروت ، 1983 .

(27) المصدر السابق ، ص : 148 .

« للشيخ الإمام محمد عبده » رحمه الله ، ونفس الإجلال للفكر « التنويرى » الذى صرح به منذ ما يقرب من قرن بأن الدين للآخرة فقط . ما يكتمه الدكاترة الأكاديميون صرح به هذا الدكتور المناضل ، وأوصل الأمور إلى نتائجها المنطقية . فلا بأس عنده من مداراة الشعب الذى لا يريد الانفصال عن دينه ريثما نروج للعلمانية . ننصب للشعب واجهة دينية ريثما يصل إلى درجة النضج فيتقبل تغيير « كل ما فى القرآن والسنة » فأحرى أقوال الفقهاء ، فلا حلال ولا حرام إلا ما قررته الإدارة السياسية .

يكفينا هذا القدر لننبه إلى خطر الحاملين لرايات الإصلاحية النهضوية العلمانية .

★ ★ ★

ركيزة الانحطاط

هى علمانية واحدة ، إنما تتفاوت درجة العداء للدين وتختلف الزاوية الإيديولوجية لنقد الدين وإن تماثلت الأسباب السياسية للتعامل التلفيقى معه . هناك رأس السهم الماركسيون ، الدين عندهم عاهة وعيب فلسفيا ، أفيون شعوب سياسيا واجتماعيا . هناك جموع متنوعة من اللبراليين ، هناك فلول واسعة من الناصريين . وقد رأينا عينة من فكرهم نستطيع أن نقدرها ممثلة لرأى الساكتين . هناك القوميون العرب من كل صنف . وهناك الرأى العام المثقف الذى يتجاوب مع العلمانية ، خصوصا إذا كانت تقترح تلفيقية أقل « صراحة » من تلفيقية الدكتور النويهى .

الكل يجولون فى البحث عن أحسن وسيلة لتمشية إيديولوجيتهم دون أن يصطدموا بالعاطفة الدينية للجماهير . من كان منهم يستخف بالدين ، ومن يجهله ، يبنى على هذه المسلَّمة : وهى أن المتدينين والدعاة إلى الإسلام عاجزون عجزاً نهائيا عن فهم العصر ومتطلباته . فأما العلمانى المرن ، وقد يعلن أنه مؤمن متدين ، فيدعو للأخذ بالأصلح فى الدين وتوفيقه بالأصلح فى الفكر العصرى . وأما العلمانى الذى يغلى غليانا ، لما يراه من السخط الشعبى العام ومن اليأس والرفض للسياسيات القومية الاشتراكية الانفتاحية والثورية ، فقد يفقد أعصابه وينسى مراعاة الرأى العام المسلم ، ويبين عن عدائه الأصيل للإسلام.

هذا النوع المتشنج من العلمانيين الذين لا يضيعون جهودهم فى تهيىء صيغة تلفيقية قد يكونون أقل العلمانيين خطرا لوضوحهم . إذا عارضهم معارض بأن سبب فشل التجربة الناصرية هو علمانيتها أجابوا بأن السبب هو بالعكس إبقاؤه على « ركيزة الانحطاط » وهو الإسلام ، وتعامله معه تعاملا غير ثورى . وتجد ماركسيين يدافعون عن تجربة عبد الناصر عدوهم يوما ما .

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يجعل الطائفة الدينية وسيطا بين الفرد والدولة ، فيبعد كل إمكانية للتجميع الديمقراطى العقلانى .

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يرسم خطًّا تراجعيا للتاريخ حيث يقنع معتنقيه بأن السلامة فى اتباع السلف واقتفاء أثره ،فالمستقبل خلفنا لا أمامنا ، بينما تجسد فى الإيديو لوجية الشمولية ، الماركسية مثلا ، النظرة الصحيحة إلى المجتمع والتطور التاريخى المنفتح على مستقبل يمكن أن نتعامل فيه مع العصر وقد ألغينا قيود الماضى وسلطته .

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يلغى الإدارة البشرية ، ويلغى السياسة كعلاقة بين البشر ، ليحكم إرادة خارجية ، إرادة السماء ، وليفرض على المجتمع سلطة أبدية لا تتغير ، يجسدها الاستبداد الفردى الذى كان دائما أسلوب الحكم الإسلامى .

يعتبر العلمانيون الصرحاء كل الصراحة أن الإسلام سمة من سمات التخلف لأنه لا يتيح تنظيم المجتمع على أسس ديمقراطية ، ولا يتيح تحقيق المساواة بين الطوائف المتعايشة فى المجتمع . كارثة لبنان وما نشأ عنها ، بل نشأت عنه ، من تمزيق للمجتمع أراده النصارى وحلفاؤهم اليهود وصنعوه ، تعزى للإسلام وتعصبه . وفى ضوء المأساة اللبنانية تبدو العلمانية الضمان الوحيد لإعادة وضع كانت العلمانية سببا فى تفجيره . كانت علمانية على السطح تحت أذيالها تعايشت الطوائف فى لبنان بضعا وثلاثين سنة تحت الهيمنة الفعلية للنصارى ، تحت القهر النصرانى ، والاستعمار النصرانى . كان الميزان الطائفى قبل الحرب الأهلية ميزان قوى طائفية يزينه الطلاء العلمانى للدولة ويخفيه . فلما اختل ذلك التوازن وافتضحت الطلاآت يدعو القوميون والماركسيون لتجربة علمانية أخرى تحتل بمقتضاها الإرادة البشرية محل الإرادات « الخارجية » الطائفية ..

العلمانيون الصرحاء لا يثقون بأن الإسلام يمكن أن يرعى العقلانية الضرورية لتقدم المجتمعات الإسلامية . بدون العقلانية لا يمكن أن نستخدم الإمكانيات التى بين أيدينا لتحقيق التنمية ، ولا أن نبنى دولة عصرية ، ولا أن ننظم جهازا إداريا ، ولا أن تتراكم عندنا الخبرة العلمية والتكنولوجية . الإسلام غيبية تتناقض مع العقلانية وتجاربها .

الإسلام لا يسمح بالنظرة العقلانية الضرورية لفهم الواقع فهما مطابقا . هنالك الأفكار المتقبلة ، والأوهام الدينية والجبرية التى تنفى السببية . فى لبنان نصارى هم أكثر تقدما حضاريا من المسلمين لأنهم كانوا أسبق إلى العلمانية . هم لب ذلك المجتمع وروحه .

نجيب نحن : لذلك أدى ذلك التقدم النصرانى العقلى الحضارى إلى النشاط العضلى

الماروني الذي خرب لبنان . أي شيء خرب البلاد والعباد ، الإسلام الذي حكم لبنان أربعة عشر قرنا لم تنل أثناءها إلا نصيبها بين سائر بلاد الإسلام من عنف وحروب وثورات ، أم المارونية العقلانية المتحضرة وحلفاؤها اليهود وما فعلوا بلبنان في عشر سنوات ؟ من الذي يهدر الموارد المالية والطبيعية ، من الذي يبيد البشرية هناك ، الإسلام الذي حضن الأقليات النصرانية أربعة عشر قرنا أم التدمير اليهودي الماروني الذي نسف البيوت وشرد الأرامل واليتامى بعد قتل الرجال ؟

العلمانيون يزعمون أن توحيد العرب لا يمكن مع تدخل الدين في شؤون الدولة . يرون أن التجزئة التي يعانيها العرب تجزئة سياسية وإجتماعية . من قطر إلى قطرعداآت وتنافر تجد تفسيرها في تعارض الإيديولوجيات وإستراتيجيات الأحلاف . وداخل كل قطر تناقضات عمودية طائفية تقف في وجه الاندماج الاجتماعي .

أخذ العلمانيون في ضوء التخوض الماروني في لبنان يرجعون على استحياء بعض اللائمة على التعصب النصراني ، لكن الإسلام لا يزال هو الخصم . ويا لها من نظرة عقلانية مطابقة للواقع ، هذه النظرة التي تنسب كل ظاهرة إلى الانحطاط العربي وركيزته المعلومة في أدبيات التعصب ضد الإسلام ، مراغمةً للحقائق الميدانية السافرة .

ومن الغريب أن نجد العلمانيين يقلبون الحقائق ولا يكتفون بتجاهلها . فالإسلام عندهم هو المسؤول عن السقوط الأول ، وعن العجز عن النهضة . الإسلام لم يوقف الانهيار المتزايد للأمة ، ولم يستطع مجابهة التخلف والتشتت . ما فعلته الأنظمة العلمانية اللبرالية والاشتراكية التي عزلت الإسلام وحكمت بالقانون الوضعي وتوجهت وفق التعاليم اللا إسلامية هو من فعل الإسلام سلبا وإيجابا .

الإسلام موضوع في قفص الاتهام . بذمته وعلى مشجبه تعلق كل الجرائم . إنه التخلف نفسه ! إنه العيب والعاهة ! إن الدولة الإسلامية ، وليست بعدُ إلا حديثا باستثناءإيران ، هي الخطر الذي يهدد البشرية . إنها تجهل حقوق الإنسان لأنها لا تنبع من الإنسان. بل تسقط عليه من أعلى ومن خارج . وما لم ينبع من الإنسان لا يمكن إلا أن يكون نظاما بدائيا وحشيا . الإسلام هو النموذج المكتمل « للاستبداد الشرقي » المعروف في علم السياسة بخصائص الفظاظة والخشونة والهيمنة الفردية المتقلبة المزاجية الدموية.

الثورة الثقافية

الخطر العلماني الذى ينبغى لأهل الإيمان أن يترقبوه ويحترسوا منه أشد الاحتراس ليس العلمانية الكاشفة عن أنيابها المهددة الثلابة ، لكنه العلمانية الرقطاء المتسربة إلى المسلمين وهى لابسة ثوبى زور . إنها علمانية « جغرافية الكلام » المستقبلية التراثية المجددة . تلك التى تمجد الإسلام وتنتقد الماركسية والإمبريالية وتتزلف للمخزون النفسى الجماهيرى.

أما علمانية الذين لا يزالون يغطون فشل التجارب العلمانية بالزعيق على الإسلام ، والدعوة المتجددة إلى ثورة ثقافية علمانية تغير المجتمع وتقضى على « الإيديولوجية السائدة » فما هم إلا طلبةلَمَّا تنفتح أدمغتهم المكدودة لإدراك ما يجرى فى الواقع . من عادة المثقفين أن ينتظروا زماناً حتى ينعكس الواقع على أدمغة قادة العالم ، ويتحول الانعكاس إشارات مترددة على وتيرة الخطر الدائم ، ليتلقفوا المعرفة من أفواه الرجال وأقلام الأعلام ، لا يستطيعون أن يقرأوا الواقع حيا .

إننا لا نستهين ، ولا ينبغى أن نستهين ، بالثورة الثقافية العلمانية القائمة أسواقها فى مجتمعاتنا ، الرائجة عملتها ، المرتكزة دكاكينها ومحطات بثها فى كل مرفق من مرافق الحياة ، خاصة فى المرافق التربوية . العلمانية متمكنة فى الأرض الثقافية . لها القيادة فى الكليات ومراكز التوجيه . فشلت العلمانية فى مظهرها السياسى ، فى وظيفتها السياسية ، لكنها لا تزال متربعة على كراسى الإدارة والإنتاج الفكرى ، لا ينقص من خطرها على الإسلام بُطْءُ فهمها للتحولات نحو الإسلام الجهادى فى عموم دار الإسلام .

لم تجرؤ الأنظمة العلمانية إلا قليلا على إعلان نفسها على حقيقتها . فى الدساتير تجد فى مقدمة البنود أن الدولة دينها الإسلام . ويترجم هذا فى ممارسة الحكم إلى تنازلات جزئية ، فى « الأحوال الشخصية مثلا » فى الزواج والطلاق والوقف . والأنظمة العلمانية رجعية كانت أو لبرالية أو قومية اشتراكية ، مستعدة الآن أكثر من أى وقت مضى للتنازلات الجزئية لتؤجل الأمر المحتوم . فى مصر تشتد المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية

فيصوت الحزب الرسمى ليعرقل هذا الاتجاه . فى باكستان والسودان وغيرهما ترى الحكام يستبقون لتبنى إسلام على هواهم يموهون به . أحيانا ، كما وقع فى سوريا ، فى حماة الشهيدة ، يبلغ سعار القوميين أوجه فيغرقون البلاد فى الدم المسفوك . الأنظمة الحاكمة تقرأ الواقع مباشرة ، فهى تدرك قوة الصحوة الإسلامية ، فتعترف بالواقع إما مجاملة وإما محتالة وإما متبينة وإما فاتكة . الصراع على هذا المستوى مباشر ومن قريب .

أما المثقفون العلمانيون ، أصحاب القراءة البطيئة الموسوطة ، فلهم السعة ليدبروا استراتيجية المدى المتوسط والبعيد ، ولهم الوسائل ، ولهم الإرادة . لا تنتظر أبدا أن يخلو الميدان يوما هكذا كما يستسلم حبيس أثنخنته الجراح . استراتيجيتهم الهيمنة الثقافية ، والتسرب إلى الأماكن الحيوية فى حياة الأمة . ولئن كان اتصالهم بالشعب منعدما ، وكلمتهم عنده مرفوضة ، وحيلتهم للتقرب إليه كسيحة ، فإن لديهم وسائل الاتصال والإقناع الفكرى ليؤثروا فى طلبة الجامعات ، ويبلغوا صوتهم عبر الكتب والمجلات والندوات واللقاءات والرحلات لجمهور الشباب المتعلم العاطل . والفن ميدان لهم خصب ، يتزاوج فيه الإغراء الفكرى بالإغراءات الأخرى التى يتقنون اقتناصها وتدريبها.

هدف أساسى لدى العلمانيين عليه مدار الثورة الثقافية الدائرة رحاها ، هو أن يمحوا من خاطر كل شاب مسلم السؤال الفطرى الذى ركزته التربية الموروثة : سؤال : ماذا يقول الدين فى هذا ؟ يريدون أن يطمسوا معالم الفطرة التى تسند مثل هذا السؤال ، يريدون أن يذللوا العقبة الدينية . قال الدكتور النويهى : « إذا كنا جادين فى سعينا نحو « ثورة ثقافية شاملة » وجب علينا أن نبدأ بمواجهة هذه الحقيقة : إن العقبة الأولى فى هذا السبيل هى العقبة الدينية ، وإننا لن نصل إذن إلى الثورة المنشودة إلا إذا ذللنا هذه العقبة وأزحناها عن طريقنا » (28) .

يقول الله عز وجل : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ (29) . فما علمنا الله تبارك وتعالى فى كتابه ، ما كلفنا أمراً ونهياً ، ما وجهنا فى تدبير أنفسنا وأموالنا ومجتمعنا ،

---

(28) المصدر السابق ، ص : 95 .

(29) الإسراء : 9 .

هو التعليم الأقوم ، والتكليف الأرشد ، والتوجيه الأسلم ، والتدبير الكفيل بالنتائج الأحسن . العلمانيون يغيظهم أشد الغيظ أن يسمعوا عن رشاد خارج عن الموقف المصلحى المادى الدنيوى .

يغيظهم أن يسمعوا أن الأمر واحد فى التعليم القرآنى والتكليف الإلهى . الدنيا تمهيد للآخرة فى امتداد واحد . العقيدة والعبادات وتدبير المقومات الدنيوية شىء واحد . السياسة فرع متصل مباشرة بالعقيدة ، الاقتصاد له ثوابت وحدود وأخلاقيات هى دين . الإسلام رسالة عالمية لا يمكن أن تنحصر فى العرق واللغة .

ماذا يكون هؤلاء المغتاظون من قوة عددية وسط الألف مليون ونيف من المسلمين ؟ ماذا يمثل الجهد الذى يستطيعون تعبئته بل المعبأ فعلا ، النشيط فعلا ؟

لا يفيد فى الموضوع أن نستقلّ عددهم ما دامت النوعية العقلانية والمكانة الاجتماعية تضاعف إمكانات التأثير . لا يُفيد أن نترك جهودهم لتتآكل بالتكرار حتى تمل . لا يفيد أن ننتظر من عوامل الخلافات القومية والمذهبية والمصلحية أن تمزق ما يشبه الشمل . لا يفيد أن نرفض الحوار مع من يطلب الحوار ، ولا أن نستعلى بالإيمان عن الجلوس إلى مناقشة ، ولا أن نغتر بالحق الذى ندعو إليه إن عجزنا عن تبليغ كلمة الحق ، والبرهنة عليها ، ومصابرة المجادل ، ومطاولته ، ومجاولته . لا يفيد أن نلوى أعناقنا أو نتناسى وجوداً مكثفا لطائفة تتفاوت علاقتها بالإسلام من العداء السافر ، إلى التوتر الشديد ، إلى الفضول المكبوت للمعرفة ، إلى التضاد الحزبى ، إلى الاستهتار والاستخفاف ، إلى التعالى بالثقافة الموسوعية والاطلاع « المحقّق » .

ثم أن من بينهم رجالا يعلنون إيمانهم بالله ورسوله ، هؤلاء أهل لكل تقدير ، فكم من الوقت يمضى قبل أن يدركوا غرابة عنوانهم : « علمانيون إسلاميون » وتناقضه .

منذ قرن من الزمان تقريبا والعلمانيون ينطحون صخرة الإسلام . كان رِنَان وهانوتو ولورد كرومر يزعمون أن الإسلام مناف للمدنية ، مناقض للتقدم . فانبرى الإصلاحيون محمد عبده والأفغانى وغيرهما رحمهم الله ليدافعوا عن الإسلام ويهاجموا أعداء الإسلام . وكان مدار الدفاع والهجوم حول ما إذا كان الإسلام مناقضا للمدنية أو لا . لم

يطرح الإصلاحيون قبل تلك المعارك هذا السؤال البسيط الضرورى الحيوى مع ذلك : « ماذا تعنون بالمدنية والتقدم ؟ » ولأنهم لم يطرحوا هذا السؤال فقد انبروا يقاتلون على أرضية رتبها غيرهم ، ومن وجهة نظر لم ينكشف لها الوجه الحقيقي للخصم .

أمام الإسلاميين اليوم . ولمدة طويلة ، عقول صيغت فى تلك المدرسة المادية العقلانية التى كان رِنان المؤرخ الفيلسوف وكرومر المستعمر الحاكم سلفها . فالمدنية والتقدم ، وكل الإطار القيمى الغربى ، مسلمات مفروغ منها .

بجهودنا المتواضعة مع الواقع ، الدؤوبة الصابرة الموفقة إن شاء الله ، نُفهم بالحوار ، ونمثل بالسلوك ، أن التقدم والمدنية وكل المطالب الإنسانية الشريفة ، ما هيات بلا معنى . ومادة بلا روح ، ما دامت لا تعطى للإنسان جواباً عن وجوده ، عن حياته ومماته . عن سر تقلبه فى هذا الكون بين الطبيعة السائرة به ومنتجات فكرة السائر بها .

نُفهم ونمثل بالسلوك أننا لا نعتبر الغرب ولا الشرق الجاهليين شيطانين ملعونين ، لكن نعيد طرح السؤال والنقد . كل مسلَّمة علمية وكل مبدإ علمى ، وكل ترتيب ، وكل مكتسبات العقل البشرى والجهد البشرى هى مكتسباتنا ، هى حق إنسانى ليس لأحد أن يضيمنافيه.

الأصالة والحداثة وكل هذه المفاهيم الرائجة المائجة أفكار مهزوزة تتراقص فى مخيلات متعبة . اسأل أيها المؤمن كتاب ربك عن التى هى أقوم ، واسأل سنة نبيك ﷺ عن المنهاج العملى إلى بلوغها . اسأل عن التعليم الإلهى ، والتكليف ، والتوجيه ، وعن النموذج النبوى ، فإذا معك معيار الحق . وعلى الله قصد السبيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

الفصل الرابع

القومية

الإيديولوجيا القومية

أول ما يتعرف به الإنسان إلى نفسه وإلى من حوله انتماؤه إلى أسرته . ثم تتوسع دائرة التعرف والانتماء مع نمو الفرد ونمو الجماعة فتتفرد الجماعة عن الجماعات الأخرى ، وتتخصص وتحدد هويتها بالنسبة لغيرها فى إطار العشيرة والقبيلة ، وداخل النسيج العرقى اللغوى الأمنى الذى يشعر كل فرد من أفراد الجماعة فيه أنه جزء من كيانه .

كل جماعة تحتاج لهذا التفرد وتشتد حاجتها إليه فى أيام الأزمات والشك والخطر المهدد من خارج ، ويتوسع الانتماء القبلى العرقى فيحتضن أقواما يتكاثرون ويتوحدون على خصائص أعلى من خصائص الدم والنسب ، كاللغة والوطن ؛ فتتفتت المعالم القبلية ويتشكل على مر الزمن كيان قومى كلى إليه يكون الانتماء .

القومية كلمة جديدة على المجتمعات المسلمة ، ولدت ونشأ مدلولها العصرى فى أوربا . فى إطار القومية استيقظت حقوق تلك الشعوب ، وتبلورت طموحاتها ، وتشكلت قواها العسكرية ونظامها الدولى منذ قرنين . جاءنا مفهوم الوطنية ، فهمت الشعوب المسلمة معناه بعد أن احتلت الأرض فوجب الدفاع عنها محليا ، بالقوى المحلية ، فى غياب الدولة الإسلامية . وجاءتنا بعد ذلك القومية ، وكأن الاستعمار أيقظ فينا بعدائه وعدوانه ذلك القاع الذى كان يغطيه الكيان المعنوى الأعلى وهو الإسلام . استيقظت فينا فى وجه العدوان الاستعمارى والعداوة الأوربية والعصبية القومية البرتغالية والانجليزية والفرنسية والإيطالية عصبية عربية أو هندية أو سندية .

عند الصدمة الاستعمارية الأولى قاوم المسلمون من موقع مسلم ، فلما انهزمنا ، وتداخل المثقفون مع الفكر الوارد ، وتعرفوا لتاريخ الأقوام الغالبين ، نظمت النخبة المتعلمة المقاومة على أسس وطنية قومية . الوطنية تعنى فى حق قوم مستعمَرين جمع الشمل داخل رقعة جغرافية ، والقومية تعنى توحيد القوى فى دائرة أضيق من الوحدة المفقودة ، وأدنى منها أخلاقيا وسياسيا وإسلاميا .

إذا كانت القومية فى منشئها صعودا من الانتماء الجزئى العرقى وغيره إلى مستوى أرفع ، فإنها فينا نزول تفتتى من الوحدة الإسلامية المفقودة ، يصاحبه هبوط فى الوعى ،

وتقلص فى الوجود ، وضمور فى الشخصية السياسية .

ها نحن إذن عرضة للدعوة القومية ، ومجال لثقافتها ، وحقل تجربة لسياستها . تعلمنت القومية الآن ، فلا تكاد تجد قوميا لا يعتقد المذهب العلمانى حتى ولو كان فى شخصه وبإخلاص متدينا . والتحمت الماركسية العربية مع القومية بعد طول جفاء على كلمة سواء بينهم هى الاشتراكية . وتوجهت العاطفة القومية الحادة . وفى ركابها الاشتراكية (ولا اشتراكية إلا « علمية ») وعلى عينيها المنظار العلمانى المميز نحو هدف الوحدة . هذه الأربعة لا تفترق فى هم السياسى ، وخطاب المثقف ، وشعار المناضل : قومية ،علمانية ، اشتراكية ، وحدة . وتبقى الأهداف العملية ، مثل المسألة الاجتماعية ، والتنمية ، والتقدم ، ضمنية يرجو القوميون أن يحققوها بعد الوحدة ، ويرجو الماركسيون أن يستعينوا عليها بالحلف الوحدوى ، ويرجو العلمانيون أن لا يتعارض تحقيقها مع هدف الوحدة فيفقدوا ركيزة وجودهم وهو أمل الوحدة .

هذه الأربعة مفاهيم لا يمكن فى الوقت الحاضر أن نفصل بعضها عن بعض فى الحديث ، لأنها فى الواقع السياسى الثقافى النضالى متلاحمة . فبمجموعها تتميز أمام الحركة الإسلامية فى الداخل ، وأمام العالم الخارجى ، ككتل منظمة فى الحكم أو فى المعارضة ، قطرية أو قومية . وليس أول تناقض فى القومية أن تكون قطرية ، ولا آخره أن يتزعم النصارى العلمانيون بالأمس ، مؤسسو القومية ، الدعوة الطائفية والحروب الطائفية .

★ ★ ★

ميلاد القومية العربية

منذ صعود القومية الطورانية فى تركيا على عهد « الخلافة » العثمانية ، تبدل الوضوح الإسلامى ، وتضببت الانتماءات ، وحارت الهوية . تحت مظلة الدولة العثمانية كان الناس رعية ، ثم بعد ذلك تذكر الخصيصة الاستثنائية : يهود ، نصارى ، أو العرقية : عجم ، عرب ، كرد ، بربر . بعد سقوط الدولة التى كانت شوكة الإسلام ورمزه وركيزة هوية المسلمين التمست طوائف المثقفين وضوحا فى مطالبات « خلافة عربية » ، أو وطنية قبطية ، أو نهضة فينيقية ، أو حضارة سورية ، أو مجد عربى بغدادى ، ولاحقا فى هوية بربرية.

كان هبوط الواقع والوعى من الدولة الموحدة الكبيرة إلى التشتت القومى نتيجة هزيمة ، وخيبة أمل . ظهرت النزعة القومية الطورانية فى تركيا منذ أكثر من قرن من الزمان ، باتصال المثقفين الأتراك بألمانيا اتصالا وثيقا . وكانت ألمانيا إذ ذاك فى أوج قوميتها التى تعوض بصرامتها وصخبها وانفعالها تخلفها العلمى والصناعى عن أوربا يومئذ . ظن أعضاء جمعيتى « تركيا الفتاة » ثم « الاتحاد والترقى » ، وقادتها يهود الدونما ، أن لا سبيل إلى القضاء على الدولة المريضة المكروهة من كل جانب لأسباب مختلفة ، عدوة اليهود وعدوة أوروبا ، إلا بإسقاط النظام العثمانى بوسائل العصر ، ومنها القومية . لما وصل أولئك القوميون العلمانيون ، الكفار باصطلاحنا ، إلى الحكم بعد سنة 1907 ، ساموا العرب أشد العذاب . وذلك ما أيقظ القومية العربية والعصبية العربية . رد فعل غنّى فى حفلة ميلاده النصارى العرب نشيد النصر ، ووقعوا ببصمات الولاء غير المشروط على وثيقة تجسده كائنا حيا إيجابيا يسعى ويدافع عن نفسه بطش القوميين الترك . فى سنة 1916 مثلا قتل جمال المعروف بالجزار شنقا صفوة المثقفين السوريين .

لا نريد أن نبرئ ساحة الحكام الأتراك التقليديين فقد كان منهم الصالح والطالح ، وكان نظامهم نظاما وراثيا مهترئا . لكن القوميين الأتراك ، هم كانوا خصم الإسلام أساساً : حاصروا السلطان عبد الحميد رحمه الله ، وكرهوه ، وكادوا له ، لأنه حاول ترميم الوحدة الإسلامية ، وامتنع عن بيع فلسطين لليهود ، ونظم دعوة إسلامية مضادة للدعوة العلمانية التركية . فهو رحمه الله كان أعلى منهم وعياً ، وأسمى مطمحا ، لولا أنه

كان يمثل نظاما آن قطافه ، وكانوا يمثلون تنظيما شابا تغذيه أوروبا العلمانية ، ويغذيه اليهود والملحدون ، بإديولوجية قومية لبرالية ، بها يمكن الإجهاز على « الرجل المريض » .

هزيمة الوحدة الإسلامية تترادف مع هزيمة الدولة العثمانية . وكانت هزيمة ممتدة فى الزمان قرابة قرنين ، آخر فصل فيها انقضاض مصطفى كمال حامل لواء الملاحدة .

وقبيل هذا الانقضاض ، بعد أن استغلت الدولة الاستعمارية طموح العرب القومى وضربت بهم فى حربها ضد الدولة المائتة ، أصيب العرب فى ثقتهم ، وخاب أملهم فى الوعود التى كانت تمنيهم بخلافة عربية تجمع العرب حول عرش شريف مكة .

القومية العربية فى ميلادها كانت تطلب بديلا بالخلافة العثمانية . كانت تطلب نظاما شبيها بالنظام العثمانى ، مسلما ، على رأسه شريف محترم ، من العترة النبوية ، من أقدس بقعة فى الأرض مكة . كانت إسلاما قوميا ، عروبة لا تتنكر لدينها . فجاءت خيبة الأمل لما خانت إنجلترا وفرنسا وعدهما ، و« بلقنتا » بلاد الهلال الخصيب بمعاهدة سايكس - بيكو . وبعد خيبة الأمل الهزيمة النهائية لمعنى الخلافة واسمها ورسمها . فمن هذا المركب المرضى ، خيبة الأمل والهزيمة التاريخية ، غشيت أجواء العرب والمسلمين غيوم نكراء ، وتبدلت فى عين المؤمنين من ذلك الأرض غير الأرض ، واستحال الوضوح ، وانغلقت الهوية ، وتوقح الكفر ، وادلهمت الخطوب .

طفق المسلمون ، المؤمنون حقا لا المسلمون الجغرافيون ، يجرون وراء إحياء الدولة الإسلامية بعد الخسف الذى شعروا به عند تقويض الدولة الرمز . لم يصدقوا الحدث المهول ، حتى إن طوائف شعبية فى آسيا ظنت أن الساعة قامت . هذا الحس المخضرم مات الآن . وولد حس إسلامى جديد . يريد الدولة الإسلامية أسوة بالدولة النبوية لا بديلا عن نظام ضاع لم تحضره هذه الأجيال ولا تمزقت بسقوطه . والصراع الرئيسى فى هذه المطالبة ، بل فى هذا الطلاب المشتد بحول الله تعالى ، هو الصراع الداخلى بين القومية العلمانية الاشتراكية وبين الاسلام . كل تلفيق باسم الاسلام لن يصمد أمام القومية ، وإن العواطف المخلصة التى صاحبت نشوء دولة باكستان على أمل إسلامياتها ذهبت سدى لانعدام الوعى الإسلامى والقيادة المتحزبة لله عز وجل عندما هبت رياح القومية فجرفت البنغالى القومى عن قوميات أخرى بنجابية وسندية وبلوشية هى الآن بعد الانفصال المأساوى لبنغلاديش فى طور صراع تمزقى مستمر . ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الانتساب لله عز وجل

القومية انتساب طبيعي إلى أصل المولد والنشأة . في سؤال : من هو ؟ من أنت ؟ ممن القوم ؟ ليس أكثر طبيعة من نشر الإنسان هويته بالانتساب لقومه وموطنه ، في هذه الحدود لا يزاحم الانتساب القومي التسامي الإنساني والاكتمال العاطفي للإنسان ولا يناقضهما ، كما لا يزاحمهما الانتساب للأسرة ولا يناقضهما ، ما لم يكن التعصب والحمية الجاهلية . والإسلام لا يخاصم بأي وجه ما هو من أصل الخلقة وما هو من مقومات وجود البشر ، بل يوجه عاطفة الانتساب للأسرة والقوم ، ويقويها ، لتصلح قاعدة للانطلاق للخير . قال الله عز وجل يخاطب الناس ، دون اعتبار إيمان أو غيره : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير** ﴾ (1) .

الآية الكريمة تُدرج النشأة الإنسانية على مدارج رشدها : من الذكر والأنثى يخلق الله سبحانه الكائن البشرى . إنه حضن الأسرة ، حنان الأمومة وعطف الأبوة والغذاء والأمن والتربية . ثم هو الحضن الأوسع الاجتماعي الضروري : الشعب والقبيلة والقوم . هذا وضع فطرى ، يبقى فطريا إن ارتقى بالإنسان إلى نضج التعارف والتعاون ، ثم إلى كرامة الانتساب لله عز وجل باكتساب التقوى والعمل الصالح .

أما إن انتكست المسيرة ، وتكبرت الأسرة على الأسر ، والقبيلة على القبائل ، والقومية على القوميات ، والشعب على الشعوب ، واستبدل بالتعارف التشاحن ، وبالدخول في السلم الدخول في حرب العصبيات ، ولم يتمكن الإنسان في هذا الواقع المنتكس من اقتحام العقبة إلى اقتسام الكرامة الإنسانية مع بني الإنسان ، وإلى التميز بالأكرمية مع المتقين والأتقين ، فإن ذلك فساد للفطرة ، وتكون الأسرة والشعب والقومية عشاً موبوءا تتوالد فيه مبيدات الإنسانية ، وقاتلات المروءة والتناكر والعدوان ، والعداء في ذات الطاغوت الأسرى القومى .

---

(1) الحجرات : 13 .

جاء فى الأثر أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : يا بنى آدم، جعلت نسبا ، وجعلتم نسبا ، فقلتم فلان بن فلان . وقلت : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ، فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم » . ابن آدم ملتصق بالأرض وبحقائق النشأة الأرضية ، فهو فلان ، لا فكاك عن تسلسله البيولوجى وما يحمل من مخزومات الأجيال الوراثية ، وما تجمع فيه من خصائص الجسم والذكاء والاستعداد . الله عز وجل فطره على هذا ، يد الله عز وجل صنعت وخلقت ، الله عز وجل جعل هذا . لا تعنى نسبة الجعل لبنى آدم فى الحديث أن لابن آدم أى اختيار فى خروجه من صلب أبيه فلان ورحم أمه فلانة . لكنه إن وقف عند جسمانيته ، وحجبه النسب إلى أبويه وقوميته عن مخلوقيته ، وعن غائبة خلقه الذى ينسبه إلى ربه تبارك وتعالى بالعبودية والطاعة ، والإحسان فى العمل ، والتطلع الإحسانى إلى معرفة ربه ونيل الكرامة عنده ، ونيل الأكرمية والكمال ، فجعله هذا وتوقفه وانحجابه تردٍّ عن العقبة ، وإخلال بالوظيفة السامية للإنسان ، وإفساد في الأرض .



العالمية والقومية

كان تنوع القوميات فى تاريخ الإسلام بعد فترة النبوة والخلافة الراشدة ، وتنافسها على السلطة منذ التكتل الأموى القبلى الذى حزب إلى جانب البلاط يمنية الشام ليشتد به أزر أسرة مستكبرة ، مظهرا لهذا الانتساب المنتكس .

حارب رسول اللّه ﷺ العصبية القبلية بكل مظاهرها دون أن يتنكر للانتساب الفطرى . كانت تدخل القبائل فى الإسلام فيؤمر عليه الصلاة والسلام عليها أميراً منها ولا يمس تركيبها . المنتظر أن يدخل التركيب القبلى جملة فى الإسلام ، وأن تتخلله روح الأخوة فى اللّه ، أخوة انتساب كل مسلم إلى اللّه عز وجل بالتقوى والعمل الصالح ، فترتفع القبيلة كلها من حضيض العصبية التى كانت سدى السياسة الجاهلية ولحمة اقتصادها ، ومحور حربها وسلمها ، إلى آفاق عالمية أخوة الأمة ، وتضامن الأمة ، وهما دعوة معروضة مفتوحةعلى بنى آدم كافة ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

فى السنة الثامنة من الهجرة ، عند فتح مكة ، دخل جيش النبى ﷺ أم القرى معبأ قبيلة قبيلة ، ومع كل قبيلة لواؤها ، وعلى رأسها قائدها . وهو ﷺ فى مقام عرض قوة الإسلام العالمى ، لا قوة القبائل القومية . لم ير ﷺ بأسا من تصنيف جيش الإسلام تصنيفا قوميا ، إجرائية عملية ، وحفاظا على تكتل واقعى يراد له أن يرتفع جملة إلى عالمية الانتماء الإسلامى ، وتخويفا لعدو لا يزال يفكر على مستوى بأس القبيلة ، ووحدة القبيلة . كانت فى ذلك العرض التاريخى العظيم الكتيبة الخضراء وحدها ، وهى الأكثر سلاحا وبأسا ، والأعظم إيمانا ، تخرق حواجز القبيلة . كانت تجمع المهاجرين والأنصار رضى اللّه عنهم .

هل زال الشعور القبلى بعد وفاة رسول اللّه ﷺ ؟ هل ماتت العصبية الجاهلية ؟ هل اكتملت التربية ؟ أسئلة سكونية تقدر أن العصبية والشعور القومى والتربية أشياء وأحداث تقع أو لا تقع . ليست هذه المعانى ماهيات تلصق بالإنسان ، ولا هى مكتسبات يستولى عليها الطالب فهى له ملك . الشعور القبلى والتعصب القومى غرائز مركبة فى الإنسان

والجماعة ، هما من العناصر العقبة منظوراً إليها فى انحدارها . والتربية التى تقاتل هذه الغرائز المرضية جهد يجب أن يبذل على كل الجبهات الحيوية ، فالكينونة من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة هدف دائم يتحدى إرادة المؤمن ، ليرتفع إلى الله ، ليقتحم إليه العقبة ، مغالباً التيار الهابط الذى يرده إلى نسبته السفلى .

فى عز المجتمع المدنى إثر وفاة رسول الله ﷺ كان حوار فى السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، فنبضت نبضة بشرية لما قال قائل : منا أمير ومنكم أمير . فى تلك اللحظات الفاجعة ، والقلوب منكسرة لفراق أحب الناس وأطهر الناس وأسمى الناس ، لم تغب النسبة الأرضية ، بل نطق بها اللسان ، واقترحت فى الميزان .

لكن ما لبثت هذه النزعة أن ذهبت ، وما لبث الذين آمنوا وتواصوا بالصبر عدداً وعُدة وسلاحا ، وتواصوا بالمرحمة فى الله رحما ونسبا ، أن قاموا يذبون عن عالمية الإسلام لما ارتدت قبائل الأعراب المتنكسة فى انتسابها القومى . منعت هذه القبائل الزكاة أن تؤدى للأمة . يعنى هذا أن العامل الاقتصادى كان الاعتبار الحاسم الذى أيقظ العصبية وسلحها . تضامن قبلى متقلص فى وجه إرادة عالمية محررة .

بعد استواء الملك العاض على الحكم أصبح التضامن المتقلص فى القمة والدعوة الإسلامية العالمية تركد فى المجتمع الساكت تحت الوطأة . أو تقوم مطالبة ، أو يثور تضامن منافس ، أو حلف أقوام . هذه هى الوتيرة التى فصّلت تاريخ المسلمين الداخلى .

ما هو التركيب الاجتماعى الأمثل المطابق للإسلام ؟ أما النموذج العملى المعيارى فهو المجتمع الذى بناه رسول الله ﷺ . ليس نموذجا بنخيله وحيطانه ، وبساطة عيشه ، وفروسية رجاله ، وجمال سفره ، وسيوف جهاده ، كما يحلو لبعض الفاكهين أن يضحكوا ممن يتأمل ذلك النموذج الخالد . الخالد بالتربية التى رفعته من حضيض النسبة الأرضية إلى أوج الانتساب لله تعالى ، الخالد بالاقتحام الإيمانى الذى وصله بمصادر القوة الإيمانية ، وأوصله إلى أوج الانتساب لله تعالى ، وأوصله إلى الاعتزاز بالله عز وجل بدل الاعتزاز بالآباء والأجداد . الخالد بالدروس الإنسانية ، والسياسية ، والجهادية ، التى أثلها لنا لنتعلم من آيات الله فيها وفى الكون والتاريخ البشرى عامة حدود الإنسان فى فرديته ، وحركيته فى انتمائه ، واستيلاء النخوة القومية عليه ، وما يصعد هذه النخوة حتى تصبح

دافعاً ساميا ، أو يمكنها فى النفوس فتستحيل نعرة مدمرة .

إن من ينظر إلى المستقبل ويفكر للمستقبل ، والمستقبل بيد الله عز وجل تؤدى إليه جهودنا ونحن مسؤولون عن نتائجها ، يمثل أمامه مشهدان تاريخيان : العرب أوّل عهد الإسلام ، والعرب اليوم . على أى مجتمع دخل الإسلام ، بل فى أى مجتمع برز ؟ معرفة ذلك التفاعل الأول علم ضرورى لتنهيج الحاضر والمستقبل .

دون الحنين إلى خيال العروبة فى مهدها ، وفى وارف بساتينها الثقافية ، واقع دموى جاهلى تحكمه العصبية ، ويحركه الحقد ، وينتج عنه الفوضى ، وتهدر فيه الحرم ، ويستعبد فيه الإنسان . الروح الجاهلية كانت حقيقة شوهاء زينتها فى خيال القوميين العاطفيين المقتنصين للهوية الضائعة لغة مجيدة ، وشعر يرفع للعلا مكارم الأخلاق ، والفروسية ، والشجاعة ، والكرم . الروح الجاهلية لم تمت . وهى تلبس فى لبنان التمزق ، لبنان القناصة والأحقاد والعشائر والخيانات ، لباسا عصريا ، وتركب سيارات ، وتفتك بالرشاش والدبابة بدل الرمح والسيف . أى كرم ، وأية شجاعة ، وأية فروسية لا تزال تكمن فى العرب الطائفيين القوميين بلبنان التناقضات ، وفى عرب القومية الاشتراكية الوحدوية ؟ بل أية بلاغة عربية تحمل إلى تلك الآذان ، إلى ذلك الوعى الذى أودى به الانفعال وتاهت به الأحلام ، رسالةَ العالمية ، رسالةَ التحرر ، رسالة اقتحام العقبة وفك الرقبة إن لم تكن بلاغة الإسلام ، ورسالة الإسلام ؟

★ ★ ★

حسن الصحبة

إن مما جُبل عليه البشر أن يجدوا هويتهم فى البيئة الجغرافية التي فتحوا أعينهم عليها ، وفى الإلف الأسرى ، والشمل العشائرى ، أو القومية التى تقوم مقام العشيرة فى المجتمعات المتطورة التى اندمجت وتوارت منها المعالم القبلية . هذا الانتماء الجِبِلّى العاطفى العام فى البشر قد يبقى عفويا ، وقد تلتقطه الحزبية السياسية ، فتستشمره وتوجهه وتستنبت منه عصبية خاصة طلائعية ، تحافظ على ماض ومجد ضاع ، أو تستأنف مطالبة لهدف مرجو ، رجعية أو تقدمية ، محافظة أو ثورية .

بالانتماء العفوى يتعرف الفرد إلى نفسه ، وتتعرف الجماعة إلى نفسها بالتقابل النسبى مع هوية أخرى ، مع نفس أخرى ، مع قوم آخرين . هذه أسرتى تميزنى عن الأسر ، هذا وطنى بين الأوطان ، هذه قوميتى . وبالانتماء الحزبى ، ذى التكتل المنظم ، والإيديولوجية إن كانت ، يتعرف الفرد على طموحه المستقبلى ، وعلى ماضى مجده ، ويتعرف الحزب على ساحة الصراع وما فيها من أضداد . كل ذلك لا يرفع قيمة الانسان وقيمة المجتمع ، عفويا كان أو منظما موجها ، أعلى من النسبية بين البشر فى التنافس الاقتصادى والسياسى ، والوجاهة الاجتماعية والرئاسة والسلطة ، وأقصى ما يُبلّغه هذا الانتماء الطموح إلى الهيمنة على مصير البشرية ، والاستعلاء على الجميع . ألمانيا فوق الجميع ، هذا كان شعار القومية النازية .

نحن مستقبلاً بحول اللّه بصدد إعادة تنظيم الجماعة نواة الأمة ، وإعادة تركيب المجتمع المسلم على قواعد الولاية الجهادية والولاية الإيمانية ، والنسبة للّه عز وجل . نحن إن شاء اللّه بصدد إعادة النظم الفتيت لعقد الأمة ، ومعنا النموذج الأول ، ومعنا كتاب اللّه عز وجل ، وأمامنا القوميةَ الناشئة لا تزال ،والناشئ أصلب عوداً من الشائخ . أمامنا النداء القومى المتأجج عاطفة وحماساً ، حوله يلتم القومى القومى ، والقومى الماركسى ، والماركسى القومى . والرهان بيننا جبلية الانتماء ، والشراكة فى نفس الماضى العربى فيما يخص القومية العربية ، ذلك الماضى المتألق الذى ننتمى إليه وينتمون ، كل من وجهته .

وحسب تفسيره . والإشكالية التي تنتظر الجواب والحل هي : كيف نجلب جماهير الأمة المختلفة القوميات ، العفوية منها والمنظرة المنظمة ، من أحضان الانتماءات النسبية ، ليسمعوا نداء الإسلام ، ويرتفعوا إلى الأنتماء المطلق الذي تدل عليه كلمة : « مسلم » ؟

لقب « مسلم » يضعك مباشرة فى مدار آخر غير مدار القومية . أنت مسلم للّه . أسلمت له . تنتسب له بالعبودية ، وهذا لا يقتلعك طبعا من الانتماءات الأخرى الجبلية والضرورية، إنما يحررك من عبوديتها المعنوية ، ويملى إسلامك للّه عليها حدودها ووظيفتها.

الجواب على الإشكالية نلتمسه فى التربية . لا يطرح فى التحزبات السياسية أى مشكل أخلاقى تربوى عقدى كما يطرح فى التحزب للّه عز وجل . الناس هناك تقتنع بفكر ، وتتعهد بانضباط ثورى مهدّد ، ثم الممارسة وجدليتها .

فى التجميع الإسلامى لا تكفى العقيدة والنظرية ، لابد من تربية أهم أهدافها وأسبقه رفع همة المؤمن من النسبى إلى المطلق . والأرضية الاجتماعية فى غالبية الجماهير طبقات متراكمة على مر التاريخ من عفويات ، وفى الطبقة المتعلمة ركام ثقافى فكرى العنصر الغالب فيه الوطنية والقومية والأصالة والتحديث والتنمية .

تتضاعف الصعوبة أمامنا من كون التكتلات النسبية ذات الأهذاف السياسية والطبقية المحدودة لها فاعلية وتأثير فى الواقع ، فمن يصحبنا على درب الجهاد لا ينبغى أن تفصله النسبة للّه عز وجل المترتبة على التقوى والعمل الصالح عن واجبات الفاعلية والتأثير والصراع اليومى الدائم . وإلا انحذفت الحركة الإسلامية فى الأجواء العليا ، وفقدت مواقع أقدام على الأرض . كيف الجمع ؟ كيف يكون إسلامنا للّه رافعاً معنويا ومؤثراً عمليا معاً ؟

شبيه موقفنا بموقف البعثة النبوية من كون المجتمع المراد تغييره أرضي الانتماء فى الجملة . عبارة « فى الجملة » هذه تستثنى شرائح اجتماعية واسعة هى على إسلامها الموروث الفردى غير المؤثر ، وعبارة « أرضى الانتماء » نتحاشى بها استعمال كلمة « جاهلى الانتماء » لما فى إطلاق اسم الجاهلية على المسلمين ، ولو كان الفسق سائدا

والردة فاشية والحكم جاهليا ، من فتح خطير لذرائع الفتنة .

لهذا الشبه ، ولوحدة الهدف ، لا يصلح أمر التجديد الإسلامى إلا بما صلح به أمر التأسيس الإسلامى . وحسن الصحبة مفتاح الموقف اليوم وغدا كما كان فى العهد الأول . حسن الصحبة يعنى حسن التربية ، يعنى أولويتها ، يعنى أخذ الفرد بالإحسان ، واكتنافه بالصحبة ، ورفعه مع الجماعة ، وصونه فى محضنها ، وإشراكه فى حيويتها الإيمانية ، وأخذه عاطفيا وعمليا ، وقلبيا وعقليا . فى السفر الجماعى من أرضية الانتماء إلى سماويته، من قطرية القومية ومحليتها إلى عالمية الإسلام .

إن القومية ، عربية أو عجمية ، رباط جديد مصطنع مستورد فى بلاد المسلمين . إنه فى نظر قادة القومية العلمانيين بديل عن كل دين ، بديل عقلانى مصلحى أرضى انفعالى عنيف . تكتسب القومية خصائصها العقلانية المصلحية الأرضية من الإيديولوجية القومية المتبناة المستوردة ، وتكتسب العضلات والعنف من الانفعالية الموروثة ، ومن المواقف السياسية القومية التى سلحت أمس العربى ضد التركى ، والبنغالى ضد البنجابى ، وتسلح اليوم بشكل أفظع وألعن العربى ضد الإيرانى .

أيكفى أن نرفع شعار الإسلام والسلام والأخوة وحسن الصحبة فى وجه المارد القومى الفاتك ؟ هل نجد فسحة السنوات الثلاث عشرة التى خصصها رسول اللّه ﷺ لتربية أصحابه الكرام لا يحملون طيلتها أعباء المقاومة والقتال ؟ هل تتركنا تهويشات الصراع الداخلى والخارجى وتشويهاته لنتفرغ ريثما نعقد عهد حسن الصحبة ونربط العلاقات الإيمانية الإسلامية ؟

على محك الكيف العملى ، على معيار الممارسة ، توضع مبادئنا كلها ، ومنها حسن الصحبة فيما بين أعضاء الكيان الإسلامى الزاحف . لا يكتمل عملنا إلا إذا أحسنًا أيضا ، وفى نفس الوقت ، وعلى مدى مراحل التغيير الإسلامى ، صحبة الدعوات المضادة والمنافسة ، المسالمة والمقاتلة . نقابل كلا منها بما يليق ، بما شرع اللّه عز وجل لا بما يستفزه من كوامن انفعالاتنا عنف الآخرين . ولسنا بمستطيعين اختيار الظروف التى نواجه فيها الواقع ونقتحم فيها العقبة ، ولا بقادرين على إيقاف عجلة الأحداث وتكييف سردها ، ولا

بناجحين إن ظننا أن الكائن الإسلامى يفيد يوما ويؤثر إن بدأنا برعايته وتأليفه فى ظل الخفاء والأمن الكاذب الخطير فى أحضان السرية . كل كيان عضوى لا يصبر على شراسة الصراع سيفنى لرخاوته. كلمة حكمة ، لا علينا إن استغلها بالباطل أصحاب نظرية « النشوء والارتقاء » .

لنترك الآن ، إلى رجعات إن شاء الله ، شأن التربية وكيف تتزاوج مع المقاومة . إن هذا التزاوج من أهم ما يتوقف عليه الفوز بثمرات النصر فى الدنيا والكرامة فى الآخرة .

ولنذكر العناصر الاجتماعية الإيمانية الأخلاقية التى يتألف من مجموعها النسيج الإنسانى لمحضن التربية ، والجو المعنوى الذى يستنشق فيه ، والعلاقات الرافعة إلى النسبة العليا منه .

كنتُ كَتبتُ فى « المنهاج النبوى » تصنيف شعب الإيمان البضع والسبعين فى فئات عشرة أولها وفاتحتها خصلة « الصحبة والجماعة » ، أى وجود المحضن التربوى الرافع ووظيفته . وأذكر بالأثر الذى ورد فيه قول الله تعالى : ﴿ **فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم**﴾ ليفهم ما أقصد بعبارة « المحضن التربوى الرافع » .

على مدى إحدى عشرة مرحلة يتخلق المؤمن ويتقى ربه ويتكرم ويرتفع إلى النسب الأعلى . يكون حب الله ورسوله أول ما يلوح لبادرته عند لقاء حزب الله ، يرى ذلك سلوكا كاملا . إن كانت الجماعة كاملة . وهذا أفق يُطمح إليه ، ولا كمال إلاالله عز وجل . ثم يتعلم عمليا محبة إخوانه فى الله سبحانه وتعالى ، يخرج تدريجيا من الانتماء الجبلي الآسر إلى هذا الانتماء الأخوى . ثم يقرن هذه العاطفة الأخوية الوليدة بالصحبة العملية لأخوته ، بمعايشتهم وإكرامهم ومشاركتهم . ثم يرتفع عاطفيا بواسطة محبة الإخوة وصحبتهم وعلى مثالهم إلى التعلق والتأسى بالنموذج الكامل رسول الله ﷺ ، والتخلق بأخلاقة العليا الجامعة بين عظائم الأمور وبين الممارسة اليومية المتواضعة مثل حياة الأسرة . ثم يتعلم المؤمن الأهمية القصوى ويطبق واجب الإحسان للوالدين . وإنها لمن عويصات التربية عندما تتعارض واجبات المؤمن المتحزب لله سبحانه الحركية مع رغبات الوالدين . لا يريد الله عز وجل للمؤمن ، مهما كانت الظروف ، إلا الإحسان للوالدين والأقربين

بالمعروف . لا يريد أن نقطع الانتماء الجبلى ، بل نستبقيه ونبنى عليه ونأمل فيه الخير . ثم يستقر المؤمن فى حضن التربية فى بيته مع زوجه بآداب فوق آداب الألفة الجبلية، نحافظ على تلك الألفة ونصعدها . ثم يتعلم المؤمن الإحسان إلى الجار ، والإحسان باب مفتوح . بل هو فتح ومفتاح للدعوة ولتوسيع دائرة الانتماء ، وجذب الأمة إلى النسبة العليا الأقرب فالأقرب . وإكرام الضيف الوارد عليك ، والذى ترد أنت عليه للدعوة وسيلة أخرى رافعة . ثم يكتسب المؤمن وسط الجماعة ، وتكتسب الجماعة بنشاط أفرادها ، الفضيلة الخلقية والسياسية بالقدرة على رعاية حقوق المسلمين والدفاع عنها ، وبإصلاح ما أفسدته ذات البين الاجتماعى وما أفسده الظلم السياسى . ومن هنا نرى أن التربية تدخل من الأبواب القاعدية لمجال الصراع ، ومجال الوقوف مع المستضعفين . وتتم الملامح الخلقية التأهيلية للتربية المجاهدة باكتساب المؤمن صفة البر وحسن الخلق ، وهى جماع الخير ، ومعقد الفاعلية الجهادية ، والوجه الباسم المحبب الجذاب للدعوة . وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.



النسبة الجاهلية

شعار الثورة يعنى أول ما يَعنى الإفصاح عن نية إحْدَاث تغيير اجتماعى يحقق العدل والمساواة ، يحارب الطبقية ، ويزيل ركائزها الاجتماعية لتتقوض قواعدها إلى الأبد. العقيدة الشيوعية تؤكد هذا وتبشر به . كما تؤكد أن كل الثورات التى سبقتها أدت بدون استثناء إلى إحلال استبداد مكان استبداد ، وأدت إلى تحسين جهاز القمع الموروث ، وهو جهاز الدولة . وزعم أساطين هذه العقيدة أن استبداد الطبقة العاملة ، (دكتاتورية البرولتاريا) ستحرر البشرية (إلى الأبد) من الطغيان ، وتضمحل الدولة جهاز القمع ، ويتآخى الناس . فما مضت الليالى والأيام حتى غلبت الطبقة العاملة فى روسيا ، واستبدت، وطغت ، وطورت أجهزة القمع أعظم ممَّا كانت ، وأشد ممَّا كانت فتكا . كانت تعد بأخوة البشر تحت ظلال العدل الشيوعى ، ومغيب القوميات . . فما دارت الأيام دورتها حتى فندت أعمال ستالين أقوال سلفه حين رفع لواء القومية عاليا ليصد هجمة النازية . عصبية طاغية ما كانت لتصدها إلا عصبية طاغية ، قومية هاجمة ما وقف لها الجيش الأحمر لحمرته ، بل انهزم شر هزيمة إلى أن استيقظت ، بل إلى أن أوقظت سلافية الروسى وحسه التاريخى ليدافع عن الكرامة القومية .

الإسلام وحده ، وهو دين اللّه الذى جاءت به الرسل عليهم السلام ، حمل إلى البشرية سر تغيير الإنسان ، ذلك السر الذي آخى إخاء حقيقيا بين حواريى كل رسول ، ومن شاء اللّه من أجيال بعده . انتكست بنو إسرائيل بعد فترة الخلافة فى الأرض وعهد اللّه، فنقض اليهود الميثاق ، وتحولت اليهودية إلى مجتمع مغلق ، متعصب ، مستكبر ، مستعْل على ما ضرب عليه من الذلة . والآن قامت دولة اليهود ، دولة يغذيها حبل من ناس أمريكا، ويملى لها حبل من اللّه ، لتكون فى العالم نموذج التعصب العرقى القومى الدينى. حشروا دينهم المزور مع تعنتهم القومى . ويحاول علمانيو العرب ، ومنهم من يزعم أنه مسلم يعتز بالإسلام وينتسب إليه ، أن يؤلفوا بين متناقضين ، بين القومية والإسلام ، أى بين الجاهلية والإسلام .

كان إسلام سيدنا عيسى عليه السلام دعوة للأخوة بين البشر ، شهد اللّه عز وجل

بالرأفة والرحمة لأتباعه . وبقيت الرأفة ، والرحمة آثار منها ، حتى فى دين النصرانية الذى احتفظ رغم التزوير والشرك بنسمة من عَبير الإِسلام الأول . تآخت أوروبا يومها تحت لواء النصرانية : كانت النصرانية رباطا داخليا لا يعرف الميز القومى ، ويخفف من وحشية التسلط الإقطاعى . فلما استأسدت النصرانية ، وتكتلت فى وجه الإسلام المنتشر ، وعدت على المسلمين وارثى رسالة الأخوة العالمية فى هجماتها الصليبية ، انكسرت روح تلك المجتمعات ، وانعكست الكراهية الموجهة للخارج على البنيات الداخلية ، ونشأت العصبيات القومية التى غذاها وقواها الزحف الاستعمارى . فتلك اليوم قواعد الجاهلية مرساة فيهم ، وأبرز مظاهرها العنف .

يقول قائل الجدلية المادية والتاريخية : ما هذا الكلام ؟ أية مثالية حالمة ؟ أى غوص على معانى لا تلمس باليد ؟ أى فهم خيالى للتاريخ ؟ أين الاقتصاد ؟ أين الصراع بين الأضداد الاجتماعية ؟ وهل كان للرحمة والرأفة والأخوة وجود إلا أن يكون هدنة فى غضون الحرب الأبدية بين الأغنياء الأقوياء الأسياد وبين الفقراء المستعبدين المسودين ، أو أبوية إحسانية خيرية من أبويات « أفيون الشعوب » ؟ .

طالما لعبت المادية بالمزاج العقلانى لمنظرى الشيوعية الحالمين الذين يزعمون أنهم أفضل من تعلم من دروس التاريخ . وقد هبت رياح التاريخ على الدولة الاشتراكية الثورية السوفياتية من لدن ميلادها فأصابت الأدمغة العبقرية ، خاصة دماغ ستالين وما ستالين بدع فى الجاهلية ، وألهمته أن أقرب طريق لانتصار الشيوعية وأهم وظيفة لاستبداد البروليتاريا يتمثلان فى تعزيز جهاز القمع . وبث الرعب والوشاية والنفاق والشك فى المجتمع الداخلى ، وانهاض القومية الروسية لإخضاع القوميات فى الاتحاد السوفياتى ، ولمواجهة القومية النازية دفاعا ، والعدوان على العالم هجوما .

قلة ممن عمقوا النظر العقلى ، واستمعوا للأنين الإنسانى ، وتأثروا لآلام البشر واستقصوا الآفاق الجاهلية فعرفوا حدودها ، تجمعت لدَيهم عناصر الحكمة ، وهى الفكر الواضح والإحساس الإنسانى فرفعوا صوتهم ينادون ويستصرخون الأخوة بين البشر . يبحثون عن روح لهذه الحضارة المادية الجاهلية القاسية . أما رجاء جارودى فهو لا يزال مع إسلامه المعلن يحتفظ بإصرار على ماركسيته « الجزئية » ولله فى خلقه شؤون . أما

جارودى هذا ، وهو فيلسوف مرموق ، كان ولا يزال ، فى الماركسية ، فإنه ينشد الحضارة الأخوية ، ويراها لا سبيل إليها إلا عن طريق ما يسميه بالمفارقة TRANSCENDANCE يعنى الألوهية والإيمان .

ويقول قائل القومية المنتصرة ، لا قوميات المسلمين المهزومة ، قائل أوروبا وأمريكا : لا بأس أن تُعانُوا أنتم الأمم المتخلفة من فَوَرَان قوميتكم الناشئة . ولا بأس أن تتحدثوا عنها وعن آلام مخاضها . إنما أنتم أطفال فى هذا الميدان كما أنتم أطفال فى غيره . والطفل يحلو له أن يلعب بخيال يعوضه عن عالم الكبار . أحلام صبيانية يوتوبية هى « الأخوة بين البشر » . منا أيضا شعراء حالمون لا واقعيون يقولون بمثل ما تقولون . لهم عندنا متنفس فى جمعيات الرفق بالحيوان الخيرية ، وجمعيات حقوق الإنسان السياسية ، ومنظمات الغوث الدولية ، بل وأحزاب « الخضر » المدافعين عن سلامة البيئة . كل أولئك نشاطات هامشية ، مندمجة ، مقبولة عندنا لا تضر بالسير العام العقلانى لمجتمعاتنا ، بل تهب من قبلها نسمات عاطفية تزعمون أنتم الأمم الطفلة أنها تعبر عن ضمير الإنسانية المكبوتة . ترددون نفس شعارات شعرائنا الهامشيين الأعزاء . أما أن ترفعوا هذه الكلمات الضخمة : الجاهلية ، العصبية فلا ضير . وما هى إلا عبارات فى الهواء ، لا تجرح شعوراً ، ولا تُنكى مثل تعبيرنا بالامبرالية والاستعمار الجديد . ما كان ضَرَّنا حديث بعضكم عن « الشيطان الأكبر » لو بقى الأمر كلاماً وفلسفة ، وما كان ليصبح لكم عندنا وزن لولا إرهابكم ومتفجراتكم وفرقكم الانتحارية التى طردتنا من بيروت وطردت إسرائيل من لبنان .

تحدثوا ما شئتم عن الأخوة بين البشر ، وعن نقيضها الجاهلية ، فنحن لا نرى ولا نعتبر إلا ما تفعلون . احلموا ما شئتم وامضوا فى فلسفتكم القرونية . عيننا على « التعصب الدينى » ، هذا الإسلام المتفجر الذى يهدد مستقبل العالم ويهدد الاستقرار الدولى الذى بذلنا فى تشييده الجهود والأموال . ماذا تفعلون وأنتم عزل أو تكادون ، فما القصة إن أصبحتم أمة مصنعة ، إن امتلكتم التكنولوجيا ، إن تسلحتم بالذرة والإلكترون ؟ ! .

العصبية بحروف نارية أنتم ، والباقى كلام طفولى . وتحليلكم الروحى للتاريخ هراء لا معنى له عندنا لولا ما نخشى أن يترتب عليه من تصعيد التعصب الدينى وتسليحه نظير التحليل المادى الماركسى الذى استعمله الروس لحظة لبناء الهيكل المهدد الآخر .

أنتم والشيوعية عالميتان خطيرتان على الحضارة ، أنتم أخطر ولا شك ، فمع الآخرين لنا تاريخ مشترك ، وفكر مشترك ، وقسمة للعالم وتوازن . وأنتم أنتم العصبية المخرِّبة .

هذه لفتة تَسَمُّع لما يمكن أن يقال عنا ، وزبدة هذه اللفتة أن المجتمع الأخوى والإيمان بالله عز وجل ، وهو شرط وجوده ، هما المطلب المتلجلج فى ضمير الإنسانية الشقية ببعدها عن الله عز وجل ، المتردية بانتكاسها فى النسبة الأرضية القومية وفى المادية الملحدة المستمتعة الأنانية . مطلب يتلجلج ، وتعبر عنه ألسنة فلاسفة الغرب الطلائعيين مثل جارودى المسلم ، أو تنتظم لملاحقة شبحه الجذاب منظمات ترفض عنف الحضارة الغربية وقسوتها وأنانيتها .

جارودى استنتج ضرورة « المفارقة » كما يُطلق مصطلحات نشأ عليها ، باعتبارها شرطا لإحلال الأخوة بين البشر ، وتعويض العلاقات الإنتاجية الرأسمالية البضاعية ، والعلاقات الاشتراكية التى بقيت بضاعية ، بل زادت فى هذا المعنى على ما كانت عليه فى المجتمع الطبقى المعترف بطبقيته .

فى منطقه الذى يعذر فيه مؤقتا ريثما يعمق إيمانه ، هدانا الله جميعا لما يحبه ويرضاه ، يطرح السؤال هكذا : ما مكان الألوهية فى حياة البشر ؟ الجواب داخل المنطق المقلوب : مكانها ووظيفتها أن تتغير نظرة الإنسان للإنسان ليتآخى البشر ، وليحيى الخلق فى مجتمع أخوى ليس فيه شيء من آفات الحضارة المادية التائهة .

هذا المنطق المعكوس أخٌ صِنوٌ لمنطق الإسلام السياسى ، وهو منطق نجده حتى عند بعض الحركات الإسلامية . يقول هذا المنطق : الإسلام لماذا ؟ فيجيب نفسه : الإسلام لتقوم الدولة الإسلامية الحرة العادلة الموحدة القوية . النسبة لغير الله عَز وجل تترصد كل مسلم حديث الإسلام أو قديمه ، لكثرة ما يصحب الغافلين عن الله عَز وجل ، ولطول ما يعافس الدنيا ومشاكلها اليومية ، وأفكارها وعداواتها وصداقاتها وتناقضاتها . تتضاءل عنده مكانة الألوهية ، فتدخل الألوهية فى نسبية مع همومه وآلامه وآماله ، فإذا الألوهية وظيفة من وظائف حياته ، ملحقة به ، قابعة هنالك فى أعماق مّا ، لا وجه لها ولا نور . ومن لم يجعل الله له من نورا فما له من نور .

كم مرحلة من مراحل التربية والتحزب لله تعالى وذكره وعبادته وتقواه وحبه وحب رسوله ﷺ يجب أن يسلكها المؤمن وتسلكها الجماعة حتى تصفو النظرة الإيمانية التي تضع العبد مكانه الحقيقي، مخلوقا مكلفا من لدن رب خالق، مرزوقا، مُمَاتا، مبعوثا، محشورا، مسؤولا، مجازى في جنة أو نار ؟.

نسبيات العالم ترهق الإنسان عن عبوديته، وتغل رقبته، وتوعر عقبته، فمن له بتحرير قلبي عقلي يفك وثاقه ليرتفع إلى اعتبار كل من خُلق من ذكر أو أنثى، إلى الشعوب والقبائل، إلى الخلق كافة والإنس والجن، وحدة مخلوقة لا فضل فيها ولا تفاضل إلا بالتقوى، ولا كرامة إلا بالعبودية لله عز وجل؟ هذا الارتفاع يتجاوز بك حدود الواقع المليء بالعصبيات والقوميات، يتجاوز بك العالم حتى تمتلئ إيمانا فترجع على الواقع تجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله التكليفية هي العليا، غير ساخط ولا متشنج أمام تناقضات العالم وعصبيات المجتمعات وتدافعها التي جعلها الله عز وجل فتنة وامتحانا. ذلك الارتفاع يرقى بك إلى الاستماع بالقلب المطمئن والعقل المتجلل بالسكينة المتحفز للتنفيذ إلى قول الله عز وجل: ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والانسَ إلاَّ ليعبُدون** ﴾ (2). لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(2) الذاريات : 56 .

عبيّة الجاهلية

قال رسول الله ﷺ وهو يخطب فى أصحابه : « يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عُبِيَّة الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل بَر تَقِي كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى » رواه ابن أبى حاتم . عُبِيَّة بضم العين وفتح الباء والياء المشددة هى النفخ والاستكبار . وقال ﷺ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خُلق من تراب ولَيَنْتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكُونُنَّ أهون على الله من الجُعلان . » رواه ابن كثير فى تفسيره . الجُعَل هو خنفساء البيت المسماة بأبى جعران . مبالغة فى تحقير من تعاظم واستكبر بنسبه الأرضى .

الناس رجلان كما قال الحبيب المصطفى ﷺ : ذاك الذى ارتقى بالإيمان والتقوى والكرامة فى نفسه والمعاملة بالبر ، وهو حسن الخلق ، لغيره ، والآخر الذى هوى إلى الأسفل بفجوره ، فشقِىَ فى نفسه وكان شقاءً لغيره ، الأول تطهر من عبية الجاهلية ، والآخر تنفخ بها وتعاظم فحقره الله وصغره . أراد أن يصعد بالاستكبار ، فهان فى ميزان الإيمان . والحديث الثانى يذكر بنى آدم بالمساواة الأصلية لكيلا يظن ظان أن النسب الطينى رافعه عند الله تعالى اغتراراً بالأمجاد الأرضيَّة التى علقت بأسرة أو قومية . فى مجتمع إسلامى سوى ينبغى أن يكون بلال الحبشى وخباب القَيْن الحداد أكرم على الأمة من حاملى الأسماء المرتعشة خُيلاء . ويمكن أن نقيس صحة مجتمع مسلم واعتلاله باقتراب تقويمه للناس أو ابتعاده من سلم القيمة عند الله .

وقد بدأ الاعتلال ، واختل ميزان التقوى الذى رفع أسامة بن زيد رضى الله عنهما ، الفتى الأسود الأفطس ، إلى مرتبة قيادة جيش من جملة جنوده أبو بكر وعمر . وعادت عبية الجاهلية واعتبار النسب الطينى مع القفزة الأموية على الحكم . فكانت إيذاناً بدخول الأمة فى دوامة التجهل ، أعنى التقهقر إلى معانى الجاهلية وقيمها . كل حضارة تساوى قيمتها قيمة الإنسان فيها بوصفه إنسانا ، لا بوصفه سليل أسرة أو عشيرة أو قومية . ومن تنفخ الأموية واحتقارها للموالى نبغت ردة الفعل الشعوبية . انظر ابن خلدون فى تحليله للعصبيات والعصبيات المضادة يضع قدمك على الدور والتسلسل فى ناعورة عبية الجاهلية

وعلى إهدار قوة الأمة فى الصراعات الداخلية .

يعتبر القوميون المعاصرون الدولة الأموية نموذجا تاريخيا لانتصار القومية ، ويعتبرون عهدها عهدا ذهبيا ، وتعصبها للعرب وبهم مأثرة خالدة . لا غرو، فالميزان الأراضى جامع.

أما ميزان السماء ، الميزان الذى يكرم الآدمى المساوى لكل آدمى باعتبار الطينة ، فإنه يرفع فقط الجهود الفردية والجماعية لتجاوز النعرات والتحلى بالتقوى الجالبة للسعادة الأبدية الأخروية ، وبالبر والإحسان للخلق الجالبين للكرامة الدنيوية .

فى ميزان السماء يعتبر المولى الوافد على الجماعة الإسلامية مرشحاً آدميا للفضل والكرامة . الولاية بين المؤمنين هى الرباط العام فى الجماعة ، والمولى الوافد مرشح للدخول لهذه الولاية عضوا كريما . فإذا بالرجعة الأموية تغلق عليه الباب وتتحول الكلمة إلى علامة التنقيص الاجتماعى ، أى النبذ الكلى .

المَوْلى فى الشرع الإسلامى من له ولاية العتاق ، وهى العلاقة التى تستمر بين الفتى أو الفتاة الأسيرين العبدين وبين سيدهما بعد العتق ، وبمقتضاها يبقى العبد والأَمَة على اتصال بمَحضنهما وحاضنهما حتى إنهم يرثانه شرعا .

وبالمعنى العُرفى كان المستند الغريب أو الضعيف إلى قبيلة يعيش تحت كنفها وحمايتها يعد حليفا لها ويسمى مولى لها ، ولم يحارب المسلمون هذا العرف ، بل أبقوا عليه ليكون آصرة من الأواصر الجبلية التى ينتظر منها أن تقوى الرباط العام الإيمانى وتشده .

فإذا بالانغلاق العصبى منذ بنى أمية يفرغ هذا الشكل التنظيمى للمجتمع من مضمونه التربوى . قد فقدت الأسرة والقبيلة مِن روح الدعوة والرغبة فى تنشئة الفتى والفتاة الأسيرين على الإيمان ، والحفاظ عليهما بعد العتق فى فى دائرة المؤمنين ، كما فقدت القدرة على إشراك المولى الحليف فى حياة الأخوة الإيمانية ، ودمجه شيئاً فشيئاً فى مجتمع مآله المرسوم أن يصبح مجتمعا بلا طبقات وبلا خصوصيات عرقية مَرَضية ، لولا الاعتلال والتجهل.

من سمات الانقباض القبلى القومى للعرب الأمويين ، قل من أسبابه المؤصلة ، التصدى للسلطة والمال من خلال العصبية لا من طريق الحق ، وبالتالى إحلال طبقية تصنف

المجتمع تصنيفا جاهليا محل الأخوة الإيمانية الرامية أصلا إلى تطبيق قانون : « إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم » .

ماذا صاحب العصبية الجاهلية من ظواهر أخرى جاهلية أردت الأمة إلى أن بلغت بها حالة التمزق والهوان الذى نعيشه اليوم ؟ لا تفسر العصبية وحدها التاريخ ، لكن العوامل الأخرى التى أدت إلى الانحطاط ما هن إلا بنات للعصبية . الملك العاض ابنها البكر ومنه تفرعت آفات الدولة ، واحتقار الوافد شقيقه ، ومنه تولدت الاستقالات الاجتماعية عن وظائف الدعوة . ومن ذلك النسل الخبيث ، من عموماته وخؤولاته ، نشأت الطبقية والظلم الاجتماعى ،والتخويف ، والتفقير، وتعطيل الآلية السياسية الاجتماعية الكلية الإسلامية العظيمة التى عليها مدار حياة الأمة ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فى المجتمع الإسلامى الصاعد تكون روابط الجبلة الأسرية والعشائرية والقومية حليفة للروابط الحياتية والحرفية والاقتصادية والمدرسية والثقافية لخدمة الرباط الإيمانى الولائى وتقويته ودعمه . فلما بدأ المجتمع المسلم فى الانحدار أصبح الفرد فى مجتمعه الذى تحكمه العصبية وبُنَيَّاتها يساق مع القطيع ، فى أسرته ، وعشيرته ، ومواليه ، ومدينته ، وحرفته ، وجيشه ، إلى مصير دنيوى يهبط من هين إلى أهون . عقم الوسط الاجتماعى من مخصبات الدعوة والتربية بعقم الجهاز الحاكم من مخصبات الحق والحرية والمسؤولية . وفى المساجد وبيوت العلماء العاملين ومجالس الإيمان انزوت الدعوة ، فحافظت لنا كل هذه القرون على روح الإيمان . ووجد المسلمون فى ظل المسجد وحلقة الواعظ ودرس العالم ملجأ ، واتخذ إلى ربه سبيلا من حرص على مصيره الأخروى من طريق جانبية بعد أن طلقت الدولة الدعوة واختصم السلطان مع القرآن .

إننا نعيش فى عصر التكنولوجيا ، يواجه الإنسان الآلات ، ويعايشها ، ويغاديها ويماسيها . جارودى ومن جرب تجربته يصرخون من تحول الإنسان فى العالم المصنّع الى آله تتفاعل مع آلات ، ويستصرخون من يدلهم على الأخوة الاجتماعية وعلى الألوهية . كثير من الغربيين الأشقياء بوسطهم التقنى ، بعمارة الإسمنت المسلح ، بالتلوث والصخب وتراكم الأشياء يتهافتون على مجتمعات بشرية بدائية علهم يَرُوحون رَوْح الفطرة . ولم يعد الوسط الاجتماعى فى بلاد المسلمين ، الذى يغرى السواح « الروحيين » بعتاقته ، هو

المركز الإشعاعى للإيمان كما كان ذات يوم . يكونه إن شاء اللّه قريبا بعد أن يتجدد وتنتظم فيه وظائف الدعوة والتربية بانتظام وظائف الدولة على قيم الكرامة والتقوى ، بعد ذهاب الجاهلية العصبية أم الخبائث .

ينبغى أن ينظف المجتمع الإسلامى من دعاة العصبية ، فهم ليسوا منا بالنص القاطع . قال رسول اللّه ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . رواه أبوداود . رُوح الإسلام ورَوْحه لا يجدهما مجتمع فشت فيه ريح العصبية ونتانتها . عن جابر بن عبد اللّه رضى عنه قال : « كنا فى غزاة ، فكسع (ضرب) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار . فقال الأنصار : يا للأنصار ! فقال المهاجرون : يا للمهاجرين ! فقال النبى ﷺ « دعوها فإنها منتنة ! » رواه البخارى .

إن التركى الذى اضطهد العربى فقام العربى غاضبا لكرامته ليس هو التركى المؤمن ، بل هو التركى القومى ، جاء بها منتنة من الجاهلية الألمانية ، وعمقها فى أساطير طوران وخرافة الذئب الأشهب . وإن العربى الذى هاجم إيران الإسلامية ما هاجمها من موقع إسلامى ، بل فعل من موقع بعثى يعادى الإسلام باطنا وإن كان يحرق له البخور ظاهرا . والبنغالى المتعصب فى حزبه القومى ما حارب المسلم البنجابى ، لكن حارب الأثرة القومية ، حارب عبية الرجل الأبيض الشمالى آكل القمح الذى يحتقر الأسيوى النحيف آكل الأرز ويظلمه . دعوها فإنها منتنة ، ولنتناصر فى الحق . كانت العرب فى عصبيتها ترفع شعارا يلخص روح العصبية ويوجز مستلزماتها فى قول القائل : « انصر أخاك ظالما أومظلوما » . تعصب ضد الحق مع القومية . أخوك هو العربى قبل كل دين ! وليذهب مليار مسلم ونيف إلى الجحيم إن رضى حفنة من النصارى الذين استبدلوا ، ولما يشعر القومى المسكين ، ببرنامج القومية برامج طائفية . بدّل الإسلام روح ذلك الشاعر الجاهلى ، وحوله من خدمة العصبية والباطل إلى خدمة الحق والتآخى فى اللّه . نطق النبى ﷺ يوما قال « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . عرف المؤمنون الصحابة المقال لعهدهم به وهم العرب الأقحاح ، لكنهم لم يدركوا مغزى استعماله الإسلامى . فسألوا النبى ﷺ : « يا رسول اللّه! هذا أنصره مظلوما (يعنى أفهم كيف أنصره مظلوما) ، فكيف أنصره ظالما؟ » قال ﷺ : « تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه » . هذا حديث متفق عليه .

عــرب قبل كل ديــن !

هذه الصــرخه نفّس بهــا جمــال الدين الأفغـانى رحمــه اللّه عن لواعج هزيمتـه فى أخريات أيامه ، بعد مكثـه فى مصر تسع سنوات نفخ فيها من روحه الثوريـة فى جماعته. غادر مصر إثر إخـفاق الثورة العُرا بية مع صـفيه محـمد عبده رحـمها اللّه . وبعـد فترة لندن وباريز وإصـدار « العروة الوثقى » تردد بـين إيران وشبـه الجزيرة العـربية ومـوسكو حتى استطاع السلطان عـبد الحميد أن يستقـدمه إلى الأستانة سنة 1892 ميلادية . هنالك فى العاصمة عاش خمس سنوات محاطا برعاية السلطان ، وبالرقابة المعلومة .

وجد نفسه هذا الرجل القوى الشكيمـة فى قبضة الدولة التى طالما أهاب بها لتنهض وهو إلى جانب اليـأس أقرب منه إلى جانب الرجاء . فلما تمكن من أذن السلطان راودته فكرة إصـلاحية . رجع من ثوريته كرها كما رجـع محمد عبده بـعد عودته من المنفى . فحاول أن يساهم فى المعركة القائمة يومئذ بين السلطان و « الفتيان الترك » من جمعية « الاتحاد والترقى » . كان هؤلاء يريدون تتريك العرب وسائر السلطنة . أى كانوا يرمون إلى هدف معاكس الاتجاه لهدف السلطان الذى كان يدعـو للوحدة الإسلامية ، المرتفعة فوق القـوميات ، الجامعة لأشـتاتها . وكان قد نظم فى محاولتـه الترميمية دعـاة يوجههم الشيخان أبو الهدى الصيادى والمدنى التونسى رحمهما اللّه .

كانت العلمانية الطورانية يومـئذ غريمة للتيار العثمانى الإسلامى . هذا التيار الأخير وقف موقف التضـاد مع عَبَدَة الذئب الأشهب ، دعاة التتريك . لِمَ إذن لا تتعرب الدولة التركيـة لتتمكن فى إسلاميـتها ؟ لِمَ لَمْ تتعرب كمـا تعربت كل الدول التى حكمت دار الإسلام ؟ لم شذت فى هذا عن غيرها ؟ والأسئلة وجـيهة قيمة فى ذلك الزمان وفى كل الزمان . فـما تكون العروبة بمعنى تبنى لسـان القرآن وتبنى العرب بصفـتهم أمناء الوحى السابقـين ، وحب العرب لسابق فضلهم ولمـا يرجى دائما من غنائهم شقاقـا عن الإسلام أبدا. لا تكون العروبة القـائمة بالإسلام شقاقـا ما لم يتحزب العرب لغير اللّه عز وجل ، وما لم تكن الدعوة إلى قوميتهم ندا وضرة للدعوة إلى اللّه عز وجل .

كان السلطان الصالح محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية سنة 1453 رحمه الله وأجزل له المثوبة ، والسلطان سليم الذى تلقب بالخلافة من بعده ، تراودهما فكرة تعريب الدولة. ذكّر الأفغانى صاحبه السلطان بهاتين السابقتين ، ولعله رجا بصدق أن يعالج هذا الترميم المتأخر بتعريبٍ يقرب الترك من علوم الدين ويساهم فى إصلاح ما أفسده الاستبداد المزمن وما كان يفسده إذ ذاك تناحر القوميات . وهيهات ، فقد كان الذئاب الشهب قد تمكنوا فى البلاد التركية يُمولهم اليهود وتشد أزرهم أوربا الحانقة على « الرجل المريض » . كان لم يبق بعد وفاة الأفغانى رحمه الله سنة 1897 إلا عشر سنوات لتسلم القوميين الترك زمام السلطة استعدادا لقلع السلطنة من جذورها .

لنسمع الأمير شكيب أرسلان رحمه الله يعرض وجهة نظر هؤلاء القوميين الطورانيين لندرك كيف جاءت صرخة الأفغانى حين قال : « نحن عرب قبل كل دين ! » وجوابا على أى شىء جاءت ، ووسط أية ظروف اقترح التعريب دواء لأمراض الدولة المتحضرة . قال الأمير : « وهناك فئة ثانية تدعى الطورانية تخالف الفئة الأولى ، أى الفئة التى تقول بالقومية العثمانية الإسلامية فى كل هذه النظريات ، وأشد دعاتها ضياء كوكب ألب وأحمد أغانف ويوسف آقشور[اليهودى] اللذان قدما من روسيا وجلال ساهر ويحيى كمال [...] . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة ، وأعرقها مجدا، وأسبقها إلى الحضارة [دائما الترنيمة القومية ، عبية الجاهلية !] . وأنهم هم الجنس المغولى الواحد فى الأصل ، ويلزم أن يعود واحدا . ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية . ولم يقتصروا منها على الترك الذين فى سيبيريا وتركستان والصين وفارس والقوقاز والأناضول والروملى بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول في الصين وإلى المجر والفندلاديين فى أوروبا . وكل ما يقال إنه ينتمى إلى أصل طورانى . وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون. فهم ترك أولا ومسلمون ثانيا . وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية ، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية . وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا : نحن أتراك فكعبتنا طوران ! وهم يتغنون بمدائح جنكيز ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينكرون شيئا من أعمالهم ، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها » . (3).

(3) نقلا عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، لأبي الحسن الندوي ، ص : 217 .

التاريخ رصيد حكمة ، والمنحدر القومي واحد . نفس الإعجاب بالأسلاف الجاهليين، نفس العداء للدين إلا إذا كان خادما للقومية . نلاحظ أن الأتراك العلمانيين كانوا يقولون عكس مقالة العثمانيين المسلمين . هؤلاء يقولون : نحن مسلمون أولا أتراك ثانيا . وأولئك الأبعدون يقولون : أتراك قبل كل دين ! وليفهم من شاء : أتراك بلا دين وهذه ما صرحوا بها إلا بعد استيلاء الطاغوت مصطفى كمال على الحكم . وإن كانت العلمانية برنامجهم كما هي العلمانية البرنامج الحتمي لكل قومية . و ما نهى عن عصبية الجاهلية هادينا الأمين ﷺ بذلك الإلحاح وتلك الصرامة لو لم تكن الخطر الأعظم على الدين.

ها هو إذن رائد النهضة الإسلامية الثائر الأسد جمال الدين الأفغاني ، وهو في قفصه الذهبي بالقرب من السلطان ، لا يقر له قرار أو يجد سبيلا لينصر القضية الكبرى التي أوقف عليها حياته رحمه الله . في أي سياق برزت منه هذه العبارة المدوية :« عرب قبل كل دين » ؟ أهي رد مباشر على الطورانيين الذين قالوا « أتراك أولا »؟ أتمشي كلمته بنفس القوة وفي الاتجاه المضاد كما يعرف علم الميكانيكا ردة الفعل ؟ لنسمعه يقص محاولته ، ولنترقب كيف صدرت العبارة .

قال رحمه الله : « لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما [...] وهو اللسان العربي لسانا للدولة . ولو أن الدولةالعثمانية اتخذت اللسان العربي لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة [...] . لكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة وأسقمه رأيا ! إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعي النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى وفي الدين الإسلامي من عدل ، وفي مسيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفي مكارمهم من عادات . لكن ، مع الأسف ، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربي خطأ بينا [...] لو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم ، واستعربوا ، واتخذوا بغداد عاصمة لهم (كان شبح « الخلافة» العربية العباسية مخيما على تلك المعركة) [...] فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة ؟ أو أعز جانبا ؟ أو أمنع قوة ؟

« إنني أحزن وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطإ في عدم قبولهم اللسان

العربى ، لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، (واستبدالهم به) اللسان التركى ! [...] ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية . ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة ، لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ ، أو بيانا يترجم عن جنان . وهو فى حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية تجده قد خف وزنا ، وانحط معنى [...]

« فكيف يعقل تتريك العرب ، وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر . فالأمة العربية هى « عرب » قبل كل دين ومذهب ! [...] .

« لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضيع فى خلوات عديدة ، ولكنه كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له [...] فحولت وجهى عما لا يمكن إلى ما يمكن»(4) .

أخشى أن يكون قوله : « وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل ، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر » إشارة إلى النصارى العرب الذين كانوا فى ذلك الزمن رواد الأدب العربى والصحافة العربية والتأليف العربى والأكاديمية العربية . أخشى أن تكون أخوة اللغة هنا تتعاظم لتلطم أخوة الدين . أخشى أن تكون صيحة « عرب قبل كل دين » أختا متقدمة رائدة لكلمة محمد عبده الداعية ليأخذ المسلمون القرآن فى يمناهم لآخرتهم، وما اكتشفه الأولون والآخرون لدنياهم . أخشى أن تكون المدرسة الإصلاحية كلها هائمة فى ضباب القومية والعلمانية : تلك الضبابية التى انقشعت عن كلمة الكواكبى الصريحة القبيحة :« الدين للآخرة فقط » رحمهم الله وعفا عنا وعنهم آمين .

لولا هذه النكتة التى تبدو لنا اليوم بشعة ، ومعركتنا مع ذلك هى نفس معركتهم تجاه القومية والعلمانية وإن اختلف الزمان والظروف ، لكان دفاع الأفغانى رحمه الله عن العربية هو الصواب بعينه ، ولكان اقتراحه المتأخر بتعريب الدولة العثمانية من أكثر الانتقادات التى وجهت لهذه الدولة سدادا . على أنه لا يعدو أن يكون انتقادا ترميميا ، فالاستبداد الوراثى الملكى استبداد لا مكان للاعتداد به والاعتزاز ، عربيا كان أو عجميا.

(4) نقلاً عن كتاب محمد عمارة : « تحديات لها تاريخ » ص : 240 .

إن عالمية الإسلام تجر معها كما يجر الملزوم لازمه عالمية لغة القرآن . وإن المليار مسلم ونيفا ، ويتزايدون أصلح اللّه وبارك ، ليس لهم مستقبل أمام التكتلات العظمى التى لها وحدها الحياة مستقبلا إلا بوحدة إسلامية لغتها المشتركة لغة القرآن ، لا عوض عن هذا إلا التشرذم فى اللهجات القومية .

فيما قومنا العرب ! لم تريدون لغة عظيمة فقط ، لا تفكرون ، حتى تقليدا ، فى نشر لغتكم فى العالم لتناطح اللغات القوية ؟ لم تحرصون على التزمت بعروبتكم وفى عروبتكم فى الوقت الذى ا نكشفت فيه علمانية النصارى القومية المعلنة المطلوبة منذ قرن عن انتماء طائفى لنصارى أوروبا ويهود الغزو ؟ غر أجيالا منكم أن اللسان العربى قد يكون الرباط الجامع الممكن مع تلك الأقلية التى كنتم تنظرون إليها كالنجم الثاقب فى سماء الحضارة لتقدمها النسبى ، فأين أنتم من عزة بالعالم الإسلامى الناهض رويداً بإسلامه ، أين أنتم من عزة باللّه عز وجل وبالإسلام العظيم الذى لا يمكن بحال أن ينفك عن اللغة العظيمة ؟ وإنه لا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم .

★ ★ ★

أفحكم الجاهلية يبغون ؟

وردَت كلمة « جاهلية » أربع مرات فى كتاب اللّه عز وجل ، فبإضافة المعانى التى وردت بها وكتابُ اللّه حكمة ، يمكن أن نجمع أطراف هذا المفهوم الأساسى فى المنهاج، وأن نعطيه أبعاده الكاملة بعد أن عرضنا بحمد اللّه فى فصل سابق جذر المفهوم كما يعطيه مبناه اللغوى . فالجاهلية لغة : جهلٌ باللّه عز وجل ، ينتج عنه جهل بمعنى عنف. ولا يتنافى الجهل باللّه تعالى ، وهو أعظم الجهل وألعنه ، مع العلم بعارضات الممكنات ، وحادثات المكوَّنات .

1) قال اللّه تعالى يُذكر المومنين بهزيمة أُحُد وما أنزل عليهم بعد الهزيمة من سكينة جاءت على شكل نعاس ، فسمى السكينة أَمَنَةً مقابل الجاهلية . قال تعالى : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون باللّه غير الحق ظن الجاهلية .** ﴾ (5)

2) وقال عز من قائل فى سورة أخرى يقابل حكم الجاهلية بالحكم بما أنزل اللّه :﴿**فاحكم بينهم بما أنزل اللّه ، ولا تتَّبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرْعة ومنهاجا . ولو شاء اللّه لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليَبلُوكم فيما آتاكم . فاستبقوا الخيرات . إلى اللّه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون *وأن احكم بينهم بما أنزل اللّه ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل اللّه إليك . فإن تولّوا فاعلم أنما يريد اللّه أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفَحُكم الجاهلية يَبغُون . ومن أحسن من اللّه حكما لقوم يُوقنون .**﴾ (6)

3) وقال سبحانه فى سورة أخرى يوصى نساء النبىﷺ أن لا يظهرن بمظاهر الجاهلية ، وأن ينبذن سَمْتها و « ثقافتها » وعاداتها : ﴿ **يا نساء النبىّ لستُنَّ كأحد من النساء إن اتقيتُنَّ . فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرضٌ . وقلُن قولا معروفا . وقَرْن فى بيوتكنَّ . ولا تَبَرَّجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ (7)

---

(5) آل عمران : 154 .

(6) المائدة : 48 ، 49 ، 50 .

(7) الأحزاب . 32 ، 33 .

4) وقال وهو العزيز الحكيم يُذَكر المؤمنين بغزوة الحديبية ، وكيف استيقظت حمية قريش وكيف انفعلت أمام خطى المؤمنين الثابتة وتقواهم : ﴿ **إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحَمِيّة حَمِيَّة الجاهلية . فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزَمَهم كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهْلها . وكان الله بكل شيءعليماً** ﴾ (8) .

فى الموقف الأول ، فى هزيمة أحد ، طائفة من الصحابة رضى الله عنهم ثبتوا مع رسول الله ﷺ . وفَدَوْه بأرواحهم من الخطر ساكنين ثابتين أولئك سَلِموا من مداخلات الجاهلية ، لأنهم صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يزعزعهم الحدث المفاجئ عن ثقتهم بالله وبرسوله . منهم أبو طلحة رضى الله عنه الذى كان يترس عن رسول الله ﷺ بجسده بعد انكشاف الناس ، ويقول كما جاء عند البخارى : « بأبى أنت وأمى لا تُشْرف ، [لا تظهر للكفار] يصيبك سهم من سهام القوم . نحرى دون نحرك ! » وتَرس عن رسول الله ﷺ ذلك اليوم أبو دجانة بعد أن كان بطل المعركة المُعْلَم ، والنبل يتلاحق فى ظهره . رضى الله عنه . وتَرس عنْ رسول الله ﷺ زياد بن الكن حتى قتل هو وخمسة من أصحابه . رضى الله عنهم .

أما الطائفة الأخرى التى لم تثبت فهم الذين تأثرَوا إما بالطمع فى الغنائم لما رأوا فرار الجيش القرشى أول المعركة فزالوا عن مواقعهم التى أقامهم فيها رسول الله ﷺ فكان ذلك سبباً للكارثة . وإما تأثروا باستفزاز اليهود والمنافقين ، واستخفهم الاستفزاز عن السكينة وعن الأَمَنَة وهى الأمن القلبى ثِقةً بالله عز وجل .

هذه الطائفة الجاهلية المنضوية تحت لواء الإسلام ، أعنى المنافقين ، كانوا بدعايتهم السابقة واللاحقة السبب المباشر فى كون طائفة من المسلمين ﴿ **أهمتهم أنفسهم** ﴾ عن القضية ، وعن الثبات وعن حسن الظَّن بالله تعالى . كان عبد الله بن أُبَيٍّ رأس النفاق يقول : « لو أطعتمونا ما قتل منكم أحد ! » وكان ـ لعنه اللّه ـ قبل المعركة يخذل الناس عن الخروج، قال اللّه عز وجل فى حقه : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ (9) .

---

(8) الفتح : 26 .

(9) آل عمران : 168 .

فى موقف أُحُد تتجلى سمات الجاهلية فى التَّهمُّم بالنفس عن القيام بالواجب ، ومعناه الأنانية وما تولدت عنه من قلة الثقة بالله عز وجل ، وقلة الانضباط والخفة إلى الاستماع للمُرجفين . وتنحدر الأوصاف فى سياق الآيات من سورة آل عمران إلى مشارف النفاق . فى الجملة يمكن أن نقول بأن الجاهلية أنانية ونفاق .

فى جاهلية الحكم بالهوى بدلَ الحكم بما أنزل الله نجد أن من سمات الجاهلية تفضيل الرأى البشرى على الوحى ، والزيغ عن الشرعة الإسلامية والمنهاج إلى شرعة المصالح ومنهاج الشهوة ، وابتغاء الفتنة أى الكيد والمكر ، لتضليل المؤمنين عن بعض ما أنزل الله . والضمائر فى الآيات تعود على أهل الكتاب . فلو رجعنا إلى جاهليتنا المعاصرة لوجدنا أن أهل الكتاب كانوا دعاة العلمانية السابقين ، والفتنة العلمانية التى زُجَّ فيها بكثير من القوميين من ذرارى المسلمين تنتمى جذورها الفلسفية إلى فلاسفة نصارى هم سلف هذا الفكر . هوبز الإنجليزى النصرانى دعَّم الحُكم المستبد الثِّيوقراطى الذى بمقتضاه يجتمع على رأس واحدة تاجَا الدين والدولة . دعا هذا الفيلسوف المتشبع بنصرانيته ، إلى « دين مدنى » يتوحد عليه الحكم ، لا يستمد تحت شرعيته الحاكم سلطانه من أى حق مطلق ، لكن من قدرة الحاكم على إحراز المصلحة ، وهى عنده السلم . ومن « عقد اجتماعى » هو أساس استبداده . وكانت السِّلم أهم مطلب فى زمانه فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، عصر الحروب الأهلية ، واستبداد كرومويل بعد مقتل الملك . لوك الإنجليزى نظَّر لإسقاط الحكم الثيوقراطى من موقف مناقض لهوبز ، لكن التقى معه ، وهو النصرانى المتشبع بنصرانيته ، فى ضرورة هدم الأساس الدينى للحكم . روسو الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، وهو النصرانى البروتستانتى فى أعماقه ، حارب الحكم الثيوقراطى واقتراح « ديناً مدنياً » يعطى المجتمع رباطا عاطفيا لا تمنحه النصرانية الكَنَسِيَّة عدوة المجتمع .

إذا كانت جاهلية الفتنةِ بنسف الثقة بالله تعالى من عمل المنافقين الدخلاء وسلاحها الغزو النفسى ، فإن جاهلية الحكم بالهوى سلاحها العقلانية . مذاهب تقترح بدل الدين ، شِرعة مقابل شِرعة ، منهاج عوض منهاج . ولسنا ندافع عن النصرانية التى انتقد إفسادها للبشر نصارى مثل هوبز وصاحبيه ، أو ملاحدة مثل مكيافلى وفولتير وإخوانهم لكن نَدُلُّ

العلمانية على سلفها وأصولها قبل ظهور المذهب القومى .

هل ولدت العلمانية « والدين المدنى » القوميةفى تاريخ أوروبا ؟ هل كان العكس على هامش تاريخ المسلمين منذ قرن ، فولدت القومية العلمانية ؟ أيهما فى عقليه المثقفين شرط للآخر ؟ وأيهما المشروط ؟

فى النظرة الإسلامية القرآنية السنية تلازم : عبية الجاهلية فى اللسان النبوى هى حمية الجاهلية الواردة فى سورة الفتح . والحكم بما أنزل الله جاهلية هوى ، سواء كان هذا الهوى ميلا للشهوة ساذجا ، أو كان حسابا للمصلحة مفلسفا إن كانت المصلحة تصطدم مع الإسلام . عصبية قومية ، عقلانية علمانية ، هذه معادلة جاهلية تامة جهلا وعنفا .

فى غزوة الحديبية تعبأت النخوة القرشية لتصد جند الله عن دخول مكة ! « القومية العربية » فى ذلك الإبان كانت لقريش دينها القومى ، « دينها المدنى » ، أصنام ، وحج ، ومصالح اقتصادية ، وهيبة سياسية ، وكلها لا تثبت إن دخل محمد ﷺ وأصحابه ولو حجاجا . لذا نهضت « القومية » لمحاربة الإسلام .

الآيات من سورة الأحزاب توصى المؤمنات بالاستقرار فى البيت كما يليق بالمتقيات ، وأن لا يخضعن بالقول وأن يقلن قولا معروفا ، وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى . فى الآيات الأخرى التى وردت فيها كلمة « جاهلية » تحدد مفهوم الكلمة القرآنى فى بعده النفسى الفكرى ، فى مجاله السياسى العسكرى التربوى . هنا تُحدد الآيات الكريمة الموجهة لنساء النبى وللمؤمنات من ورائهن الناحية السلوكية العملية اليومية للمجتمع الإسلامى . يتقدم التوجيه نفى المماثلة مع المجتمع الجاهلى والسلوك الجاهلى : ﴿ **لستن كأحد من النساء** ﴾ ليكتمل عندنا تصور عام للإسلام فى مقابل الجاهلية ، بالمخالفة الواجبة لسمتهم . أى لنمط حياتهم ، فى الأسرة كما فى السياسة والحكم ، والنفسية والعقلية .

الإسلام يخالف الجاهلية ، منطلقا وأهدافا ، شكلا ومضمونا . يا من يحلمون بوعاء القومية يحتوى أصالة ! أى مضمون « أصيل » يليق أن تضمه حنايا القومية الانفعالية إن لم يكن مضمون الأصالة الجاهلية ؟ والجاهلية معنى سارٍ فى التاريخ ، ليس فترة من تاريخ العرب فى شبه الجزيرة . الجاهلية عصبية قبل كل شىء ، أى تقلص فى الوجود من

الانتساب إلى الله عز وجل إلى الانتساب القومى لا غير ، ثم هى نكوص نفسى عن الصدق والثقة بالله تعالى ، ونكوص فكرى عن التلقى للحق الموحى به ، ونكوص عن أخلاقية السلوك ، ونكوص بكل ذلك عن عالمية الدعوة ، وعن خلود الرسالة ، وعن مواجهة حقائق الآخرة بعد الموت . القومية العلمانية آفاق نكوص وعنف .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

★ ★ ★

« وإنه لذكر لك ولقومك »

قال مولانا جلت عظمته يوصى رسوله ﷺ لنسمع فنتبع : ﴿ **فاستمسك بالذى أوحى اليك . إنك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك . وسوف تسألون** ﴾(1) .

هذا الذى أُوحى إليه ﷺ هو مضمون الرسالة ، به تميزت معالم الإسلام عن شرعة الجاهلية تميزا رفع نسب من تلقى الوحى ومن آمن به معه إلى السماء ، بينما بقيت نسبة القومية من لصق بها وتعصب لها وشيجة أرضية . الوحى ومرتبته السامية ومصدره الإلهى رفع ذكر الوشيجة القومية ، فلا تذكر العروبة إلا ذكر معها الإسلام . لغة العرب حملت الوحى وأعطته خصائصها البلاغية ، ومن ثم ارتفعت إلى الخلود ، فألفاظها ومبانيها مراكب لأسراره ومعانيه ، وبصحبتها للوحى ، ولزومها له وخدمتها ، أمكن لها أن تُصبح طول تاريخ الإسلام والمسلمين ذات الأثر الحاسم فى تحديد الفقه الإسلامى وتوجيه الأدب الإسلامى ، وصبغ الحضارة الإسلامية . حتى إن لغات الشعوب الإسلامية غير العربية ، مثل اللغة الفارسية وهى لغة عريقة راقية ، واللغة التركية ، والأردو وهى أحدث منهن ، ما وسعها إلا أن تستقى من معين لغة العرب المشرفة بالوحى لتكتسب بعض الروحانية فتعبر عن بعض حاجات المسلمين العجم ما دون الحاجة القلبية الإيمانية التى لا يروى غلتها إلا اللفظ العربى ، لفظ القرآن الكريم .

ذكر اللغة العربية سار فى الأرض طولا وعرضا ، وسار فى التاريخ ، وله الخلود ، ولا نذكر العربية دون ذكر العرب الذين نشأت فى أحضانهم ، ونطقت بها فطرتهم ، وانبثقت عنها عبقريتهم . فيأتى العربى القومى فى هذا القرن الخامس عشر المبارك على الأمة إن شاء الله تعالى فينتشى بلغته المعظمة ، ويفاخر النجوم بأمجاده القومية المجلوة جلوة العروس فى هذه اللغة حاملة التاريخ ، ممدودة الأصالة ، ضامنة الهوية . ينسى ، (بل غالبا ما يجهل بكل بساطة) أن لغته لولا الوحى الذى غشيها لكانت لغة غابرة ، لولا القرآن الذى

---

(1) الزخرف : 43 ، 44 .

بلورها لا تمسخت ، لولا الإسلام العظيم الذى رفعها من ماديتها الوثنية لما رفعت يوما رأسا، ولا سجلت تاريخا ، ولا كان لأهلها من الأصالة ما يستحق الفخر ، ومن الهوية ما يليق بالذكر.

يثبت الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة من سورة الزخرف أن الوحى هو مناط عز العرب ، قومه ﷺ ، وأنه السبب الأول والأخير الذى به يخلد ذكره ﷺ وذكر قومه . الوحى أعطى القوم هذه الكرامة لما قبلوه واتبعوه ، لا اللغة ولا العرق ولا التاريخ القبلى الهمجى.

قلنا آنفا : إن اللغة العربية أعطت الوحى خصائصها البلاغية . سايرنا فى التعبير ما درج عليه الناس فى التخاطب من نسبة الأشياء بعضها إلى بعض ، ونسبة الأفعال إلى مصادرها الأرضية المخلوقة . إن الله عز وجل مدبر الكون وخالقه هو يسر للعربية ظروفها ، خص العرب وهم قوم من خلقه بما علم أنه يناسب ما يريد إظهاره من رسالته الخاتمة ، وألهمهم إلهام الفطرة لسانا أعده على مر الأزمان ليكون وعاء لوحيه . والله سبحانه وتعالى بالغ أمره .

إذا كان القومى العربى ملحدا ماديا ،أوكان غافلا عن الله عز وجل ، فسرعان ما يعبر عن هوسه فيضيف الإسلام إلى العروبة إضافة الظاهرة إلى سببها ، ويضيف القرآن إلى اللسان العربى وكأنه بعض إنتاجاته ، ويزعم إن الإسلام دين العرب قبل كل شىء ، أو أن العرب عرب أماجد بقطع النظر عن كل دين . فإذا كان معتزا بالإسلام عن إيمان أو عن حمية تراثية سمعته يقلب مدلول الآيات الكريمة ، فلا يعزو للوحى شرف العروبة ، بل يمتن على العالم بأن قومه العرب هم نشروا هذه الرسالة العالمية العظيمة بعد أن حملوها فى أحضانهم ، وسمعته يؤلف المكونات العربية لعبقرية الرسول العربى . من أين جاء هذا الرسول ؟ فى أى بيئة تربى ؟ بمن تأثر ؟ ولو كان العرب الجاهليون أصحاب ثقافة مكتوبة لقال : لمن قرأ هذا الرسول ؟ وبأى فلسفة تغذى ؟ .

الإسلام فى نظر المادى الملحد ، والرسالة والرسول ، موجة من موجات التاريخ العربى ، فهو من أمجاد العروبة الخالد . الإسلام ما هدم إلا القليل من عادات العرب ، فهو

إصلاحية عربية أهلت الحضارة العربية الأصيلة لتخرج للعالم فتعمه .

الإسلام فى نظره ثورة عربية وحدت العرب فأصبحوا قوة سياسية عسكرية بها خرجوا من نطاقهم المحلى إلى المصير الباذخ .

★ ★ ★

« الله ابتعثنا »

جهل أولئك الوحى ومصدره ومعناه فقلبوا الحقائق ، وعلم كلٌّ ذلك ، معاناة تاريخية، وتشربا قلبيا واقتناعا عقليا أصحابُ رسول الله ﷺ فلمسوا ما وقع فى حياتهم من تغيير ونسبوا الأثر إلى مصدره . عمر بن الخطاب رضى الله عنه علم أن العرب ما عزوا إلا بالإسلام فقال قولته المشهورة : « إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام . فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين.. عاش هو جاهلية العرب ، قاسى منها ، كان أحد أساطينها ، رأى موكب الشرف كيف تحرك ، ارتفع فى كفالة الموكب الشريف من حضيض شركه ، ساهم بجهاده الشاكر فى تخليص الجماعة الأولى ثم المجتمع العربى الإسلامى من عبية الجاهلية ، كان فى القيادة فأمكنه متابعة المسيرة ، وأمكنه أن يدرك مكان الوحى وهدايته فى العملية كلها . ذلك وأمثاله لا يقلبون الوضع ، بل يستمعون امتنان الله عز وجل على العرب حيث رفع لهم ذكرا بنزول الوحى بلسانهم فيشكرون ، ويستمعون أنهم مسؤلون عن رعاية الوحى والاستمساك به ، والجهاد لنشره ونصره ، فيخشون المسئولية يوم القيامة ويهبون لتبليغ الرسالة حاملين مسؤوليتها (بمفهوم الكلمة العصرى) .

هذا جندى من جنود عمر رضى الله عنهما اسمه ربعى بن عامر ، جندى من أولئك المسلمين الذين عرفوا بالمعاناة ما هى الجاهلية وما هو الإسلام وما موقع العروبة بينهما ، يدخل على رستم قائد الفرس مفاوضا ، فينطق بكلمات تنم عن درجة الاقتناع الإيمانى ، وعن درجة الوعى العقلى ، وعن درجة التصميم الجهادى ، لأولئك العرب المسلمين الذين نشروا الإسلام عن شكر لمنة اللّه عليهم بالإسلام ، عن مسؤولية . قال فى ذلك البساط المستكبر وهو فى لباسه الخشن برمحه القصيرة وهيئته الساذجة : « اللّه ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

لم يقرأ ذلك العربى ماركس ، ولم يتخرج فى تنظيم لينينى ، ولم يدخل فى حوار مثقفينا حول علاقات القومية بالوحدة والاشتراكية . ما نطق به كان برنامج الإسلام فى

خطواته العالمية ، فى بداية الفتح الإسلامى .

ذهب مباشرة إلى نقطة القوة ، إلى منطق الحق ، إلى الإيمان بالله عز وجل إلها مطاعا أمر المسلمين أن يحرروا البشر من كل عبودية لغيره سبحانه . نسبة إلى الله عز وجل رفعت ذلك الجيل القوى إلى عالمية الدعوة وأخوة البشر ، بينما ترى القومى العربى المعاصر يلتف فى عباءة قوميته لتعطيه أصالة بين البشر . تراه يرفع أعلام قوميته ليلتف حولها أشتات عرب ضاعت منهم هويتهم . أولئك اعتزوا بالإسلام فانطلقوا ليحرروا البشر ، هؤلاء التصقوا بالعروبة فاعتزلوا فى الخصوصية القومية عساهم يستعيدون مزقة من إنسانيتهم.

ثم يتحدث ربعى عن ضيق الدنيا بالشرك والكفر والظلم ، وعن سعتها بالإسلام ، والعبارة واسعة حافلة بنوايا أمة فى مسيرة النصر .

ويتحدث عن الإسلام . وكان عدل عمر نموذجا ماثلا عاش ربعى فى وارف ظلاله ، لم يكن عدل الإسلام برنامجا يوتوبيا .



إلى قيادة العالم يا عرب

ينتظر المسلمـون العجم من المسلـمين العـرب أن يأخذوا زمـام النهضـة الإسلامـية . المسلمون فى العـالم ينظرون إلى المسلمين العرب نظرة اعـتراف بالجميل ، ينظرون فـيهم إلى أبناء الصـحابة المجـاهدين . سـفهـاء العرب المتنكرون لـلإسلام ، المستـمسكون بالعُبِّيَّة الجاهليـة و إنَّما ينـفخون فـى رماد . لأن ركـب الإسـلام المتيـقظ المنبعث أصبح فى منطق السـياسـة العـالميـة المرشح الوحيـد للتـقـدم بالمسلمين ، ولأن المسلمين العرب لا يزالون المرشحين لقيـادة هذا الركب بحكم رحمهم بالنبى العـربى وتمكنهم من لغة الوحى التى بها شرفوا .

العرب هم نواة الأمة الإسلامية ، كانوا ويبقون ، بإسلامهم وعروبتهم ، بإسلامهم قبل عروبتهم . وإنها لمسئوليـة ما هى بالزعامة . إنها لرسـالة ، ما هى بالسلطان تحوطه القوة . ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك . وسوف تسألون** ﴾ .

سمع التاريخ مقـالة ربعى حين ترجم على لسان المستضعـفين الوارثين برنامج الإسلام فى العـالم ، والواعون من المـسلمين اليـوم يخـاطبون العـرب ويناشدونـهم ليطبقـوا ذلك البرنامج ، ويقودوا الجهاد كما كان الجهاد يوم ذلك الإعلان .

هذا واحد من خـيار علمـاء المسلمين المعـاصرين ، أبو الحسن الـندوى ، أحسن الله إليـه، يرسم للعـرب ، وهو الهندى الجنسيـة ، طريـق القـيادة العـالميـة للعـرب ، ويحـدد شروطها . نتركه يتكلم عن ترهات القوميين منا ، عاليا عنها . قال :

« إن الطريق إلى هذه القيـادة ممهدة ميـسورة للعرب ، وهى الطـريق التى جربوها فى عهدهـم الأول . الإخلاص للدعوة الإسلامية ، واحتضـانها ، وتبنيها ، والتفانى فى سبيلها ، وتفضيل منهج الحياة الإسلامى على جميع مناهج الحياة .

« وبذلك ـ من غيـر قـصـد وإرادة لنيل هذه القيـادة وتبـوئهـا ـ تخـضع لهـم الأمم الإسلامـية فى أنحاء العالم ، وتتهالك على حبـهم وإجلالهم وتقليدهم . وبذلك تنفتح لهم أبواب جديدة ، وميادين جديدة فى مشارق الأرض ومغاربها ، الميادين التى استعصت على

غـزاة الغرب ومـستـعمـريه وثارت عليـه ، وتدخل أمم جـديدة فى الإسلام ، أمم فـتيـة فى مواهبهـا وقواها وذخائرها . أمم تستطيع أن تعـارض أوربا فى مدنيتها وعلومـها إذا وجدت إيمانا جديدا ، ودينا جديدا ، وروحا جديدا ، ورسالة جديدة .

« إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التى فـتحتم بها العالم القديم فى ميادين ضيـقة مـحدودة ؟ ! وإلى متى ينحـصر هذا السـيل العرم ـ الذى جرف بـالأمس المدنيات والحكومات ـ فى حدود هذا الوادى الضـيق ، تصطرع أمواجه ، ويلتهم بعضـها بعضا ؟ ! إليكم هذا العالم الإنسانى الفسيح الذى اختاركم اللّه لقيادته ، واجتباكم لهدايته ، وكانت البعـثة المحمدية فـاتحة هذا العهـد الجديد فى تاريخ أمتكم ، وفى تاريخ الـعالم جميـعا ، وفى مـصيركم ومصير العالم جـميعا . فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامـية من جديد ، وتفانوا فى سبيلها ، وجـاهدوا فيها . ﴿ **وجـاهدوا فى اللّه حق جهـاده ، هو اجـتبـاكم ، وما جـعل عليكم فى الدين من حرج ، ملـة أبيكم ابراهيم ، هو سمـاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسـول شـهيـدا عليكم وتكونوا شـهداء عـلى الناس ، فأقـيـموا الصـلاة وآتوا الزكاة، واعتصموا باللّه ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ (11) .

وبهذا نختم ، وبالصلاة والسلام على النبى العربي صفوة اللّه من خلقه والهادى المبلغ الأمين .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

★ ★ ★

(11) من كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، ص 318 - 319 ؛ الآية 78 من سورة الحج .

الفهرس

هـذا الكـتـاب

★ هذا الكتاب يطمح إلي عرض مسالة لا يمكن للفكر الإسلامى أن يتجاوزها : هى مسألة القومية وعلاقتها بالعلمانية.

★ إن المثقفين المسلمين ، من بقى منهم ،على موزثه الفطرى الإسلامى ومن تنكر لدينه ، ينشغلون انشغالا كثيرا بالبحوث فى التراث والأصالة والأمجاد القومية ، ينسجون من كل هذه المفاهيم طيلسانا يتقنعون به ليزدان فى أعينهم الواقع الكئيب لمجتمعاتهم . فى هذا الكتاب نصطنع اللغة التي يألفها المثقفون لنحاورهم محاولين إسماع كلمة الإسلام.

★ فى هذا الكتاب نعرض إن شاء الله لشيء من تاريخ الإيديولوجية القومية التى نبعث فى أرض غير أرضنا فاستوردها المثقفون المغربون من ذرارينا ليركبوا متنها فى كراتهم التى تحمل شعارات الإلحاد المفلسف تارة والردة والزندقة مرة والإلحاد العلمى أحيانا والأصالة التزاثية أحيانا أخرى.

ومن خلال العرض التاريخى نقول رأينا الإسلامى .

وعلى الله قصد السبيل ...

عبد السلام ياسين



دار البشير للثقافة والعلوم

طنطا ٢٣ ش الشهيد عادل الزواوى - أمام كلية التربية النوعيه

☎ ٣٢٢٤٠٤ - فاكس ٣٣١٨٠٠